فـــداوي صوفيـــة

رواية

عطر زهر الرمان

(القصاص الـــمشروع)

كلمة للنشر الإلكتروني

عطر زهر الرمان

اسم الكتاب: عطر زهر الرمان: القصاص المشروع
اسم الكاتبة: فداوي صوفية
نوع العمل: رواية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-300-250215
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
@ bassmabook
bassmabook@gmail.com
المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

عطر زهر الرمان

القصاص المشروع

رواية

فداوي صوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى كل من آثر الوحدة وفضل العزلة ونأى بنفسه عن ضوضاء العالم وجلبته، وإلى كل من يجد في القراءة ملاذًا ومتعة أُهديك نفحة مـــن عطر زهر الرمان.

مقدمة

ارتشفت كأس الانتقام كاملة دون أن أتردد، رغم أن حلاوتها كانت لحظية وتلتها شهور قاسية في اجترار علقمي للمشاعر وقد يمتد لسنوات عمري الباقية، إلا أني لست نادمة، ربما سلكت مسلك العدالة البريَّة واتخذت منطق استيفاء الحق باليد منهجًا، لكني كنت مرغمة بعدما أخذتْ عليَّ جميع السبل وسُدَّت في وجهي كل المسالك، ثم أنا لم آت بشيء جديد إنما أذعنت للرغبة المتأصلة في الطبيعة البشرية، فكلٌّ منا يسعى إلى حماية نفسه وأحبائه وعندما يتعرض للأذى تختمر فكرة الانتقام في رأسه ويسعى لإيذاء مماثل للضرر.

أرى أن بعضكم يعارضني ويرى أن آلية العين بالعين ستترك الجميع عميانًا، وربما تقولون ليس عليَّ أن أتبع كل كلب عضني لأعضه، لكن تذكروا أن كلبي أمامي ويتبجَّح بفعلته وليس أمامي سوى غرز أسناني به والتلذُّذ بذلك.

ربما يداي ملوثتان بالدم لكني بتُّ الآن راضية!

مريم: مستشفى الأمراض النفسية والعصبية

بدأت الشمس تشرف على الدنيا باستحياء وكأن لا يزال في جفنها سنة الغُمْض، ثم دبَّت الثقة فيها لتلبس بتناغم شيئًا فشيئًا ثوبها الأول، مما ساعد إسماعيل على تبيُّن طريقه بوضوح، عندما بلغ مقصده انعطف ببراعة في اتجاه موقف السيارات الخاص بالمستشفى، أوقف سيارته وجال بطرفه في المكان الفارغ إلا من مركبات ثلاث، فتجهَّم وجهه قليلًا وهو يفكر كيف ترك لحماسه الدفَّة ليقوده دون أن يثنيه، صحيح أنه يعشق سبر أغوار الحالات الفريدة ويجد متعة في فك شفرتها النفسية؛ لذا فهو عضو نشيط في جمعية الصحة النفسية المجتمعية، لكن الحالة التي استدعته لأجلها الدكتورة منال ليست فريدة بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنها حالة مركبة بحسب قولها رغم ذلك أوقدت حماسه وشغفه، حتى إنه ألغى جملة من المواعيد المُدْرجة لديه وقاد سيارته في دجنة الليل ليصل باكرًا، ودفع ثمن ذلك الحماس بتجاهل حق بدنه عليه في الراحة.

جال بطرفه مرة أخرى بالمكان قبل أن يأخذ قراره ويضبط وضعية مقعد السيارة ليسمح له بالاسترخاء للساعتين التاليتين، في انتظار

حضور الدكتورة منال للمشفى بدل الجلوس متجهمًا وسرعان ما غرق في بحر النعاس.

تحدَّت عيناه بقلة حيلة أشعة الشمس التي أعلنت سطوتها فطالت كل ما حولها، انزعج إسماعيل فمد يده للأمام وما إن رأى الساعة حتى انتفض من مكانه فقد تجاوزت التاسعة بقليل، مسح عن عينيه الكرى وغادر السيارة مهرولًا، اجتاز حديقة المشفى وصعد الدرج، ثم خطا في اتجاه المصعد الذي فُتح بابه للتوِّ، قطع الأمتار الثلاثة التي تفصله عنه وأمسك بالباب قبل أن يُقفل وهو يلهث، أبعد خصلات شعره التي سقطت على جبهته ومسح العرق براحة يده، وقبل أن يستعيد أنفاسه أعلن المصعد وصوله للدور الثالث، فخرج وسلك الممر في اتجاه نهايته حيث يوجد مكتب الدكتورة منال، وفي طريقه إلى هناك أخذ يتأمل المكاتب التي يمر بها ويسترجع الذكريات التي عاشها هنا قبل أن يغادر ويتجه إلى العاصمة، و مع كل خطوة يخطوها تتزاحم في خلده الذكريات بحلوها ومرها، ابتسم عندما استحضر ذهنه ذكرى المريض باسم الذي كان يعاني من اضطراب الوسواس القهري، وبعد دخوله للمستشفى حوَّل حياة كل من حوله لجحيم لا ينتهي، فهو يرى أن كل ما حوله يفتقر إلى التنظيم والذوق، بدءًا من الملابس التي يرتديها الأطباء وصولًا إلى الألوان المختارة للغرف، رغم أن كل غرف المرضى طلاؤها باللون الأزرق

الهادئ، إلا أن باسم يرى أن درجات الأزرق المستعمل متفاوتة بجزء يسير وهو ما يجعل تفكيره مشوَّش بشكل مستمر، كانت بالفعل أيامًا صعبة، لكن مرحة في نفس الوقت، وبفضله بذل الجميع جهدًا مضاعفًا للاهتمام أكثر بأدق التفاصيل، اتسعت ابتسامة إسماعيل أكثر وهو يتذكر كل تلك المشادات والمشاحنات اليومية، لكن سرعان ما طُمست ابتسامته وحل محلها الوجوم وهو يتذكر حالة صبا، فقد كانت تعاني من مرض الاضطراب الانفجاري المتقطع والذي يعاني فيه المريض من نوبات متكررة من السلوك العدواني كانت نتيجة إحدى النوبات دخولها في مشاجرة جسدية انتهت بفقدان المشفى لإحدى أهم ممرضاته، السيدة نهى التي قضت أثر تلقيها لضربة غادرة على الرأس، كان الحادث مأساة لم يستطع الدكتور إسماعيل نسيانه أبدًا، أغمض عينيه لا إراديًّا محاولًا الخروج من حالة الحزن التي انتابته وطرد الذكرى، مكررًا في نفسه أن كل تلك التجارب الإنسانية المؤثرة رغم قساوة بعضها، هي من صنع بشكل مباشر أو غير مباشر شخصه وجعله من الصفوة في مجاله.

عند اقترابه من المكتب اعترته حالة ترقب وحماس لم يخبرهما منذ مدة طويلة، وقبل أن يهمَّ بطرق الباب خرجت الدكتورة منال التي كانت على وشك بداية مرورها الصباحي لمعاينة المرضى، والتي لم تُخفِ دهشتها لرؤيته:

- دكتور إسماعيل! ظننت أنك ستصل مساء!

ابتسم الدكتور إسماعيل بتردد وقال:

- مرحبا منال، لقد ألغيت كل المواعيد وقدت السيارة للوصول باكرًا.
- حسنًا فعلت، كيف حال عائشة والأولاد لقد مر وقت طويل منذ آخر لقاء لي بهم.
- الجميع بخير، شكرًا لك.
- تفضل بدخول المكتب، تشرب قهوة أم شايًا؟

ابتسم إسماعيل معتذرًا:

- لا أريد أن أُؤَخِّرك عن عملك يمكنك مباشرة مرورك وسأنتظرك هنا!
- لن تؤخرني دكتور سأشرح بعجالة الخطوط العريضة فيما يخص الحالة، ثم أباشر مروري كما أن دخولنا للمكتب له سبب آخر مهم!
- حسنًا.
- والآن دكتور، دعني أحدثك عن الحالة وصدقني ما كنت لأزعجك لو لم يكن حضورك مهم.
- لقد أسعدني اتصالك يا منال وأنا دومًا موجود للمساعدة.

ابتهجت منال لقول الدكتور إسماعيل وناولته تقريرها الأوَّليّ كما عملت على شرح الخطوط الرئيسة لحالة مريضتها شفويًّا:

- حسنًا الحالة هي عن فتاة تُدعى مريم في السادسة عشرة من العمر أُحيلت إلينا بأمر من النيابة العامة لتلقّي العلاج النفسي بعد أن تعرضت للاعتداء، وكما سيتضح لك من خلال التقرير كانت في الأسبوعين التاليين للحادثة صامتة ويغلب عليها الخمول، فظننت في البداية أنها نتيجة طبيعية لمن مر بنفس تجربتها، لكن جمودها في نفس المكان لفترات طويلة، وتركيزها على زاوية واحدة في الغرفة، بالإضافة إلى التلعثُم أحيانًا في الكلام أثار في نفسي قلقًا من أنها تعاني من مرض نفسي ما، ثم لاحظت –وهذا هو المثير– أنها تتجنب أماكن تواجد الكاميرا التي نضعها لمتابعة الحالات داخل العنابر، بحيث تحاول دومًا رصد أماكن تواجدها لتبتعد إلى النقط العمياء وتتخذها مكانًا لراحتها، وإن كانت بعيدة عن سريرها فهي لا تهتم وإن افترشت الأرض، لذلك هي لا تظهر في أغلب تسجيلات المراقبة في الأسبوعين الأوَّلَين لدخولها المشفى، فكان لزامًا علينا لتشخيص حالتها بدقة وضعها في غرفة ثانية مع مريضتين فقط، وتجهيز الغرفة بكاميرا مراقبة دقيقة مخفية تمتاز بخاصية الصوت، وتم إيلاء المريضة أيضًا عناية خاصة لأن وضعها صار معقدًا بعد

أن أثبتت التحاليل أنها حامل، توقفت منال عن الكلام وأمسكت كأس الماء لترتشف منه قليلًا، رفعت بصرها اتجاه إسماعيل الذي ظهر في عينيه فضول جامح، وبحركة من يده دلَّت على قلة صبره حثَّها على المتابعة.

- وما كانت نتيجة المراقبة؟

ابتسمت منال قبل أن تتابع:

- لقد صدمت يا دكتور وأنا أراها تدخل في حالات هلوسة، وتندفع للكلام لساعات طويلة مع شخص وهمي، اكتشفت من خلال المتابعة لحديثها أنها شخصية وهمية تُدعى رشا، تظهر دومًا بعد أن يتهيأ للمريضة أنها تشم رائحة عطر زهر الرمان، ومن خلال بحثنا في السجلات الإدارية المتعلقة بعائلة المريضة لأننا لم نستطع التواصل مع أي من أفرادها، اكتشفنا أن الفتاة الوحيدة التي كانت تحمل هذا الاسم هي أخت لها ماتت نتيجة الغرق وهي لم تتجاوز سن الرابعة، إلا أن المريضة تتعامل مع شخصها الوهمي على أنها شخصية بالغة.

عقَّب الدكتور إسماعيل على قولها:

- إنها حالة شائعة في الذهان، وأنا شخصيًا صادفت حالات يتعامل فيها المريض مع شخصية وهمية على أنها شخصية راشدة، رغم أنها إن كانت موجودة في الواقع وليست من نسج خياله تكون شخصية صغيرة في السن أو العكس، وغالبًا يكون شخص متوفَّى كما في الحالة التي بين يديك.
- أجل أعلم، لكن كما ترى وبعد أكثر من سبعة أشهر من المتابعة بالإضافة إلى ما جمعته من معلومات عن حياتها، توصلت إلى أنها كانت تعاني منذ مرحلة الطفولة من اضطراب الشخصية الفصامية، ثم تحول لاحقًا أثر تعرضها لضغوط نفسية إلى الفصام وظهرت أعراضه الإيجابية والسلبية بشكل جليٍّ، فهي في مرحلة الانتقال بين المرضَين وهذا هو ما جعلها حسب رأيي واعية بالهلوسة على عكس باقي مرضى الفصام الذين لا يدركون الفرق بين الواقع والهلوسة، وهو أيضًا ما يفسر تجنبها لكاميرا المراقبة، ومن الأمور المهمة التي لمستها أيضًا ذكاؤها المتقد في التعامل مع مجموع الاختبارات التي أخضعتها لها، بحيث أبانت عن ذكاء أكبر من الطبيعي ساعدها حتى الآن على مقاومة بعض أعراض الفُصام، فلم تسمح للمرض بأن يسحبها كليًّا من الحياة الاجتماعية؛ إذ حافظت على المشاركة الإيجابية فيما يتعلق بالأمور التي تحتاجها أو ترغبها، كالحديث عن أمها المتوفاة أو

الحديث عن مترلهم القروي مثلًا، زِد على ذلك قدرتها الكاملة على اتخاذ قراراتها وهو ما لا يتأتى لأغلب حالات الفصام.

أطرق إسماعيل رأسه آسفًا على هذه الفتاة التي طوَّقها مثل هذا البلاء وبكل تأكيد إن لم تقاومه وتحاربه بذكائها الذي يبدو متَّقدًا، سيفسد حياتها ويحولها لجحيم، فهو كالأخطبوط يحتضن ضحاياه ويحد من حريتهم ويعزلهم عن الواقع ليسحبهم إلى عالمه، تذكَّر إسماعيل حالة مشابهة فقال:

- رغم تطورنا في هذا المجال يا منال ما زال العقل البشري يفاجئنا ويجعلنا في كثير من الأحيان عاجزين عن التفسير «وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا»، الحالة التي بين يديك تجعلني تذكر حالة جون ناش الحائز على جائزة نوبل الذي عانى من الفصام، لكنه استطاع تحقيق إنجاز مهني عالٍ بفضل الذكاء، فبعض الحالات النادرة تستطيع تحقيق شيء ما رغم المرض، ولا تدعه يسحبها إلى الحضيض ربما الفتاة من تلك الحالات.

وقفت الدكتورة منال وازدردت ريقها قبل أن تمسك يدها بحافة الطاولة في محاولة للسيطرة على التوتر الذي اعتراها وقالت بإلحاف:

- كما ترى يا دكتور إنها حالة ممتازة للدراسة، وفرصة ثمينة لفهم المرض بشكل أعمق وأنا أعتبرها فرصة أيضًا لتطوير خطتي

العلاجية، وكما تعلم أنا قادرة على التعامل الجيد معها وأستطيع تحقيق نتائج مُرْضِية، لكن ما دفعني للاتصال بك هو أنني وجدتها أيضًا في حالة رفض تام لحقيقة حملها، فهي رغم أنها الآن في الأسبوع الخامس والثلاثين إلا أنها لا تدرك أو ربما بشكل أدق هي في حالة نكران تام للحقيقة حتى بعد عدة جلسات علاجية، كلما حاولتُ التحدث عن إنجاب الأطفال في محاولة لتهيئتها لما هو قادم، كنت أجد أنها لا تستسيغ الموضوع أبدًا وأجد منها ممانعة شديدة، وبعد كل تلك الجلسات النفسية أنا مقتنعة تمامًا من أنها لا ترى تغييرات جسدها أو تحس بحملها، وكأنما تتخذ من الرفض وسيلة دفاعية غير واعية لحماية نفسها، فعقلها وجسدها تحالفا معًا لإنكار هذا الحمل، وكما سترى لاحقًا فإن بطنها لا يبرز بشكل يدل على أنها في الأسبوع الخامس والثلاثين من الحمل، مما يزيد من احتمالية انهيارها النفسي عند أو بعد الولادة، وأنا بكل تأكيد سأجد نفسي أمام خطر حقيقي على المولود وعلى المريضة أيضًا؛ لذا أحتاجك دكتور هنا معي أنا حقًّا متوترة لما قد يحدث، أنا على يقين تام أنك الوحيد القادر على مساعدتها.

ربَّت الدكتور إسماعيل على كتف منال وقال:

- اهدئي يا منال أنا هنا للمساعدة وسنتجاوز هذه المشكلة معًا، وأظن أنها متلازمة إنكار الحمل، وهي حالة معروفة تصيب امرأة من أصل ستمائة حول العالم، وفي حالة الفتاة أرى أنها حالة إنكار كلي وحتمًا ستشكل خطرًا على المولود، لأن أغلب النساء المصابات بهذه المتلازمة يكون لهن ردود أفعال عنيفة نتيجة الصدمة، لكن يمكننا دراسة كل خطوة نخطوها ليمر كل شيء بشكل سَلِس، وعمومًا الولادة ليست مشكلة لأننا بكل بساطة يمكن أن نطلب من طبيبة التوليد أن تخضعها لولادة قيصرية بعد تخدير كلي، لأننا لن نجازف بحياة المولود، لكن مرحلة ما بعد الولادة هي التي ستشكل تحديًا خاصة في شِقّها النفسي، وكما قلت أنا سأتابع الحالة لذا لا تقلقي.

زفرت منال بارتياح وكأن حِملًا ثقيلًا أُبعد عن كاهلها، وقالت:

- شكرًا لك دكتور إسماعيل، لا تعلم كم أراحتني مساعدتك شكرًا، والآن يمكنك متابعتها من هنا بما أنها تمتنع عن الحديث إلى شخصيتها الوهمية بوجود شخص في غرفتها ها هو الحاسوب، وسأباشر الآن مروري الصباحي وشكرًا دكتور، مرة أخرى.

ابتسم الدكتور إسماعيل:

- العفو، هذا واجب.

شاهد الدكتور إسماعيل من خلال الشاشة فتاة لا تزيد عن طفلة ذات وجه ملائكي جميل، بعيون سوداء ساحرة وأنف مستقيم وشعر فاحم، ركَّز إسماعيل نظره على بطنها المنتفخ وقال محدثًا نفسه: إن منال على حق فمن يراها للوهلة الأولى يظن أنها تعاني فقط من تراكم الغازات أو احتباس السوائل، كان بطنها بالفعل غير بارز بالنسبة لامرأة على وشك الولادة، وكانت تبدو مضطربة لا تهدأ لها ثائرة تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا، تقف حينًا تقلب الطرف بين زوايا الغرفة كأنها تبحث عن شيء ما ثم تعاود الكرَّة، استمر الأمر بشكل دوري لفترة ناهزت الساعة حتى إن إسماعيل أصابه القلق على الجنين الذي تحمله في أحشائها فأخذ يفكر في طريقة للتدخل لإيقافها قبل أن ترهق نفسها أكثر، فجأة توقفت وتوجهت إلى السرير فجلست ضامة قدميها إليها تدلكهما وعيناها تحمل نظرة تائهة.

* * *

في غرفة بلون أزرق هادئ خالية من أي أثاث إلا من الأَسِرَّة لتوفير بيئة آمنة وبفتحة نافذة ضيقة وإضاءة مريحة غير قوية، جلست مريم بعيون مستعبرة لا تكاد تنقطع دموعها، فرغم دفء ونظافة المكان

إلا أنها لا تحب تواجدها هنا، ناهيك عن غياب رشا الـــذي يكـــاد يقتلها قلقًا، جلست على السرير من شدة التعب بعد قطع الغرفـــة ذهابًا وإيابًا، ثم أخذت قدميها بين يديها وأخذت تـــدلكهما وهـــي تتذمر من التورم الذي أصابهما منذ أسبوع دون ســـبب واضـــح، وكذا إحساس التعب الذي صار ملازمًا لها، طرحت موضوع تعبها جانبًا وركزت على الموضوع الذي يشغلها كثيرًا، غيـــاب رشـــا، فغيابها ليومين كاملين أصابها بالإحباط والتعاسة، رمت الطـــرف في كل زوايا الغرفة قبل أن تبدأ كلامها وهي تنظر إلى إحداها:

- أرجوك يا رشا عودي، ماذا يكون مصيري من بعـــدك! كيـــف يمكنني العيش بين الخلائق بعد أن فقدت إيماني بهم، أنتِ لا يحق لك تركي شاردة أنوء تحت حِمل الأحزان، امتقع لون بشـــرتها وارتعشت يدها ثم بدأت مرة أخرى تفرغ عينيها من الـــدموع وتابعت قائلة:
- لقد ابتعدت تلك الليالي الداجية السوداء وبلغنا مبتغانا وحققنا انتقامنا، عودي يا رشا لنرتشف كأس الانتصار رغم أنه مُـــرٌّ في نهايته لكن سنتجرعه فهو مسلكنا الذي اخترناه، عودي وأعدك أننا لن نبقى هنا، بل سنعود إلى القرية ونعـــيش هنـــاك معًـــا، سنزرع كل ما نحتاجه، ولن نحتاج التعامل مع أحد، ولن نضطر لإخفائك أبدًا، صمتت لفترة ثم صرخت:

- هيا أجيبيني لَمَ تخلَّيتِ عني هكذا ببساطة؟ تطلعت حولها لبرهة ثم انتفضت من فكرة خطرت ببالها: يا إلهي ربما بسبب تلك الأدوية التي يجبرونني على أخذها فهي تؤثر على إدراكي، وتجعلني متضعضعة، أيعقل أنها سبب خسارتي؟! نظرت إلى الزاوية من جديد وقالت: لا تقلقي لن آخذها مجددًا سأدَّعي أخذها لكن لن أبتلعها، لم يبقَ سوى القليل ونغادر هذا المكان، سأجد طريقة ما ونهرب من هنا سنعود للقرية، نعود لأرضنا، فلا يمكننا مطلقًا العيش هنا في هذه الغابة التي يدعونها المدينة، لن نستطيع.. يكفي أنها حولتني لوحش، أنا أشعر أن داخلي أصبح كبحر لُجِّيٍّ من الكراهية، أحس أني فارغة كأني هُوَّة سحيقة لا يصلها الضوء أبدًا، رغم أن أفعالي كانت مشروعة إلا أن يديَّ تلوثتا بالدماء القذرة، لا لن أدع تأنيب الضمير يتسلل إليَّ.

أنا فقط أخذت بثأري ممن آذاني..

إنه حقي، أرجوكِ عودي يا رشا أنتِ القلب الوحيد الذي يحنو عليَّ في كربتي، وأنا أحتقر الحياة بغيابك، ثم ألا تعلمين أن نسيانك يعني نسياني لما حدث وهذا لن يتم أبدًا، كيف أنسى لحظات أمي الأخيرة وأنسى الغدر والخسة؟

أنا لا يمكنني النسيان مهما فعلوا، تلك الليلة ستبقى محفورة في ذاكرتي، طيفها يلاحقني، أتخيلها عندما أنام وعندما أصحو، أستحضرها في كل لحظة، أستحضرها الآن أيضًا، يمكنني أن أسرد كل ما عانيته كأنه كتاب أقرَؤُه.

تلك الليلة

كانت تلك الليلة من أكثر الليالي وداعة التي عرفها منزل الخالة سهير، فلأول مرة منذ قدوم مريم وأمها سعاد لا تحدث المشادات الكلامية والمهاترات اللفظية بين سهير وزوجها، الذي يكون في أغلب الأحيان مترنحًا بسبب شرب الخمر وهي متذمرة من أوضاعهما المادية، ولأول مرة ينعم المترل بهدوء حُرِمَتا منه منذ تركتا مترلهما بالقرية، لطالما أخبرت مريم أمها أنهما حُشرتا في بيئة غير صحية وأن عليهما الخروج منها بأقرب وقت، لكن سعاد كانت عنيدة لا تسمع غير صوت نفسها وإن خرج ذلك عن حدود الصواب.

جو البيت الهادئ جعل مريم تستسلم سريعًا للنوم بعدما رأت أمها تتسلل متجهة إلى غرفة المعيشة للحديث مع أختها فيما أسمته حديث الكبار، استمر الهدوء لما يقرب النصف ساعة التالية ثم كُسِر:

- سهير، أظن أني قد ساهمت بأكثر من نصيبي فيما يخص متطلبات البيت، لا تتوقعي مني أن أكون أنا المُعيل الوحيد لكل العائلة، فعندما قدمتُ للمدينة كان هدفي واضحًا هو توفير مستوى تعليمي جيد لابنتي، والمال الذي بحوزتي هو عربون بيع البيت

إضافةً لأربع سنوات من التوفير، لقد حرمت نفسي من كل متع الدنيا ومباهجها لأجل ابنتي، لذا لا تفكري أبدًا أن أُبدد ميراثها لأُعيل عائلتك.

اقتربت سهير من أختها ونظرت لها بتوسل:

- أرجوك يا سعاد، المال الذي أطلبه ليس لمصاريف البيت أنا أريد منك مساعدة عاكف هذه المرة فقط، أنت تعلمين أنه مهدد بالسجن إن لم يدفع للدائنين في اليومين القادمين.

كانت علامات الرفض واضحة في ملامح سعاد:

- لن أُبدد مالي من أجل شخص عديم الفائدة كزوجك يا سهير، اتركيه يُسجن ربما السجن يعيده لصوابه الذي ضل عنه من فترة طويلة.
- أنا أتوسل لك يا سعاد لا تديري ظهرك لي، فأنا في أمسِّ الحاجة لمساعدتك.
- توقفي يا سهير إلى متى ستستمرين في التغاضي عن الأخطاء والصفح عن الزلات، انظري إلى نفسك لقد تآكل روحَك كبتُ المشاعر حتى صرت مخدرة الإحساس، سكتت سعاد قليلًا ثم استطردت قولها: ربما هذا قرارك وهي حياتك لكني أبدًا لن أنجرف وراء قراراتك الخاطئة، أنا آسفة لكني لن أساعده.

نظرت سهير لأختها بعيون مستنكرة ووجه عابس وهمت بالاحتجاج، لكنها تراجعت عن ذلك، ثم نكَّست رأسها لدقائق لترفعه ثانية وقد ارتسمت على مُحيَّاها ابتسامة شاحبة وهي تقول:

- أنا آسفة يا سعاد، كنت أريد أن أمنحك مزيدًا من الوقت ربما أسبوعًا آخر، لكن الظروف أقوى مني ولا أرى خيرًا في التأجيل، فالأمر قد حُسم مهما كان ردك على طلبي، نظرت لها سعاد بغير فهم، فتابعت سهير وهي تنظر لعاكف الذي دخل الغرفة للتوِّ: «حتى لو ساعدتِ عاكفًا فما زلت في حاجة للمال للخروج من هذا الوضع الكارثي»، وبشكل مفاجئ توجهت بقولها لزوجها:
- انجز ما اتفقنا عليه يا عاكف.

ودون تردد أمسك عاكف بسعاد وطوَّقها بيديه، فلم تستطع استيعاب ما يحصل:

- ماذا تفعلون هل جننتم؟ لِمَ تمسك بي يا عاكف أبعد يدك القذرة عني فورًا! أختي لا تقفي هناك جامدة وأنت ترين زوجك يُحكم إمساك يدي؟
- أَنْهِ الأمر بسرعة.

نظر عاكف لسهير وقال:

- ساعديني إذن، وأحكمي إغلاق فمها جيدًا.

تلا ذلك صرخة زلزلت الأركان وأيقظت مريم من نومها فَزِعة تلفتت حولها، ثم نهضت بسرعة ناحية الغرفة التي صدرت منها الصرخة حاولت فتح بابها، لكنه كان موصدًا، أخذت تدق الباب، فلم تتلقَّ جوابًا، لكنها سمعت ضجة أحدثها سقوط أحد أثاثها، فقالت في نفسها لِمَ لا أنظر من ثقب الباب لأفهم ما يحصل، حاولت تبيُّن ما يحصل، لكنها لم تستطع لأن جسد أحدهم يقف مباشرةً خلفه، انتظرت قليلًا فتحرك الجسد أخيرًا لترى أمها تقف في منتصف الغرفة تكافح للتحرر من يدي رجلٍ يمسك بها، صحيح إنها لم ترَ وجهها فالثقب لا يمنح إمكانية لذلك، لكنها عرفت ذلك من عباءتها فأخذت تصرخ بكل قوتها وتنادي أمها، أسرعت ابنة خالتها نجلاء إليها تحاول تكميم فمها، وعندما فشلت قامت بصفعتها لتصمت:

- كُفِّي عن الصراخ يا مجنونة فضحتنا بين الجيران.

لم تلتفت مريم لصفعتها قامت بدفع نجلاء وحاولت فتح الباب الموصد، وهي تتابع صراخها وتتوعد أنها إن لم ترَ والدتها في الحال ستتصل بالشرطة.

فجأة فُتح الباب لتخرج خالتها وزوجها وعلامات الإعياء والعـــرق بادية على وجهيهما ثم أوصدت الباب بسرعة، قالت مريم بلهفة:

- أين أمي لقد رأيتها بالداخل لِمَ لَمْ تخرج، ثم وجهـــت كلامهـــا لعاكف: ولِمَ كنت تمسك بها أنت؟
- توقفي عن الصراخ، أمك متعبة قليلًا لقد عاودها نوبة الربـــو، لذا كان عمك عاكف يساعدها للوصـــول إلى الســـرير، الآن اتركيها لترتاح قليلًا.
- أريد الاطمئنان عليها كما يمكنني النوم بقربها وهكـــذا أُلبِّـــي طلباتها إذا ما احتاجت لشيء.
- اذهبي للنوم، أنا من سيبقى إلى جانبها يمكنـــك رؤيتهـــا غـــدًا صباحًا.
- لكن..
- لا تعاندي يا مريم، رافقيها يا نجـــلاء إلى غرفتهـــا، أنـــا علـــيَّ الالتفات إلى وعكة أختي بدل هدهدة هذه الطفلة.
- تعالي.. اتركي أمك ترتاح منك قليلًا، أنتِ تلازمينها كظلهـــا، من يراك يشك أنك في الخامسة عشرة من العمر، تصرفي كفتاة ناضجة هيا سنتشارك غرفتي.

كانت غرفة نجلاء غرفة تفتقر للترتيب، ملابسها منتشرة في كل مكان، لكن مريم لم تكترث لذلك فقد كانت قلقة على والدتها، وتتساءل في نفسها كيف عاودتها نوبة الربو فالجو مستقر، وهي تعلم أنها تعاني من هكذا نوبات عندما تتبدل الحرارة خاصة نحو الانخفاض.

دخلت الخالة سهير تحمل معها كوبًا من الحليب ناولته لمريم التي نظرت لها مستغربة فالخالة سهير دومًا كانت تهمل وجودها، لم تعاملها أبدًا بلطف أو بحب، كان عدم الاهتمام هو ما يطبع علاقة مريم ليس بخالتها فحسب بل بكل من يسكن هذا البيت، والحقيقة إن تجاهلهم لها لم يكن يؤلمها بل كانت ترى أن حب والدتها يغنيها عمَّن سواها:

- مريم، اشربي الحليب يا ابنتي ولا تخافي سأرعى أمك جيدًا فهي أختي قبل أن تكون أمك.
- أذعنت مريم لقولها وأمسكت كوب الحليب لا تريد أن تقطع حبل الود هذا، رغم أنها تكره الحليب.

همَّت الخالة سهير بالمغادرة فتبعتها نجلاء:

- عودي وتأكدي من شربها الحليب يجب أن تغط في النوم فلا أريد مشاكل.

- اتركي الأمر لي ثم رفعت صوتها لتُسمع مريم:
- تصبحين على خير.. أمي.

مقتل سعاد

صحت مريم على حركة غير عادية في المنزل، خطوات سريعة، كلام خافت لم تتبين صاحبه من شدة خفوته، تذكرت أمها فأبعدت الغطاء وأسرعت إلى غرفتها، فتحت الباب الذي لم يكن موصدًا هذه المرة وولجت الغرفة لترى والدتها هناك في السرير، كانت شاحبة جـــدًّا، ولون بشرتها يميل للزرقة، بدا واضحًا أنها تجاهد لتتنفس، وأنها تجـــد صعوبة كبيرة في استنشاق الهواء، سعلت فنفثت الدم مـــن فمهـــا فصرخت مريم واقتربت منها، لكن أبعدتها خالتها وأخذت تمسح فم سعاد ومحيطه من الدم بحركات سريعة، وكأنها تحاول طمس وجوده وقالت:

- اتركي لها مجالًا للتنفس ألا ترين أن حالتها سيئة!

نظرت سعاد لابنتها بعينين دامعتين وحاولت التحدث لكنهـــا لم تستطع، فرفعت يدها المرتعشة وبنظراتها حاولت قول شيء ما، ثم أشارت اتجاه أختها.

لكن سهير قطعت حركتها وأمسكت يدها قائلة:

- لا تجهدي نفسك يا سعاد، ادخري قوَّتك إلى حين قدوم الطبيب لقد أرسلت عاكفًا لإحضاره.

انتفضت مريم قائلة:

- يمكننا طلب الإسعاف ونقلها للمستشفى بسرعة.
- سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا بين طلب الإسعاف وقدومها وهي في حاجة ملحة لطبيب يكشف عليها سريعًا.

صرخت مريم غاضبة:

- لكن لِمَ لَمْ تستدع الطبيب قبل أن تتدهور حالتها، أنت من كان يرعاها في الليل فكيف لم تفطني لما تكابده من ألم، انظري إلى حالتها لقد ازدادت سوءًا، ثم لِمَ لَمْ تستدعه هذا الصباح، لقد مر وقت طويل جدًا، كان يمكن أن تكون حالتها أفضل لو استدعيت الطبيب قبل هذا الوقت.
- وماذا عنك أنت، أين كنت؟ أنا رعيتها طوال الليل ونمت من شدة تعبي، أما أنتِ فقد نمت طوال الليل والصباح أيضًا وكنت من البرود واللامبالاة بحيث أخذت راحتك ولم تتلهفي لرؤيتها صباحًا.

صمتت مريم ولم تنبس ببنت شفة واغرورقت عيناها فهي تحب أمها حبًّا جمًّا ولا يمكن أن تكون غير مبالية، لكن لا تدري لَمَ لَمْ تستطع الاستقاظ باكرًا.

قطع تفكيرها دخول الطبيب الذي أسرع لمعاينة المريضة، بعد رؤيته لحالتها، وَجَم وانتشرت على جبينه غمامة قلق، وأعلن بأسف بعد معاينة سريعة:

- تعاني المريضة من ضائقة تنفسية حادة، يجب نقلها سريعًا للمستشفى، تلون الجلد باللون الأزرق دليل نقص كبير للأكسجين في الدم، واضح أنه قد حدث فشل في جهازها التنفسي.

بدأ التوتر والقلق يسود أجواء الغرفة بعد إعلان الطبيب، لكن إضافة إلى التوتر كان هناك نوع من الخوف يعلو وجه سهير، أمسكت ثوب عباءتها في محاولة لإخفاء ارتجافها، وبللت شفتيها قبل أن تقول:

- حضرة الطبيب أختي تعاني من مرض الربو منذ الصغر، كان الدكتور عادل –رحمه الله– طبيبها الذي يتابع حالتها، فكانت سابقًا كل معاناتها تنتهي باستعمال البخاخ الذي وصفه لها الطبيب، لكن البارحة لم يكن له أي تأثير، اقترحت عليها نقلها

للمشفى، لكنها عاندت وقالت إن البخاخ سيعطي مفعوله بعد فترة، لكن كما ترى ساءت حالتها.

لم يوافق الطبيب على قولها ونظر لها بغضب:

- كان عليكم نقلها حتى وإن رفضت، لقد تدهورت حالتها بشكل سيّء، على العموم سأتصل حالًا بالإسعاف.

حاولت سعاد للمرة الثانية وهي تجاهد لتتنفس، أن ترفع يدها مشيرة بإصبعها لأختها ولزوجها، وبمشهد مؤثر ثبتت نظرها اتجاههما معبرةً بنظراتها عن كل ما عجزت عن قوله بلسانها، لكن سرعان ما شخصت عيناها لتبدأ معركة الروح والجسد فهي تجاهد لتفارقه وهو يأبى إلا أن يتشبث بها وبعد أن تعب استسلم وتركها تطفو وتغادره لغير رجعة.

أسرع الطبيب وأخذ يبحث عن النبض في رقبتها وفي رسغها قبل أن يعلن بعد لحظات عصيبة:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، المريضة توفاها الله.

بدأت سهير وابنتها بصراخ ونواح اجتمع له كل سكان الحي، بينما وقفت مريم مكانها تشعر بخدر كبير شلَّ كل تفكيرها، تلاها حالة انفصال عن الواقع كأنها لا تمتُّ بصلة لكل ما يحدث من حولها،

ترى البكاء والعويل وتسمع الصراخات، كما تشعر باحتضان بعضهم لها لمواساتها، لكنها لا تستوعب ما يجري وكأن كل حواسها متوقفة عن العمل، جلست هناك تنظر لجسد والدتها دون حراك بنظرات فارغة خالية من العقل، ولم تستفق من الصدمة إلا عندما طلبت منها المُغسِّلة التجلد والصبر، وأعلنت أنها ستنادي على من يساعدها لحمل الجثة للقيام بعملية الغسل، هنا وفي هذه اللحظة امتقع لونها وارتعشت يدها وترنحت في مكانها، انفجرت باكية وهي تمسك بيدي المرأة تعصرهما بيديها:

- كيف يمكنك إبعاد أمي عني، أمي لم تُمت لقد كانت بكامل عافيتها، البارحة بعد العشاء كنا نتسامر ونضحك لا يمكن أن تغادر هكذا.

أسرع كل من كان بالمنزل إلى الغرفة لتبيُّن سبب الشجار، جالت مريم بطرفها فلم ترَ في العيون غير التعاطف فانتفضت غاضبة لأن التعاطف يكون في المحنة المُقدَّرة على العبد والخارجة عن إرادته، أما هي فتعلم أن الأمر غير ذلك، فأعلنت في الموجودين أن أمها قُتلت ولم تُمت، وأن عليهم مساعدتها ومنع دفنها حتى تتضح الحقيقة التي يحاول البعض إقبارها، جالت ببصرها مرة أخرى تبحث عن تأييد يعيد إلى روحها بعض السلام، فلم تجد أُذنًا تنصت ولا قلبًا يرى،

فاستحالت إلى أغرب صورة كأن بؤس الحياة جميعه قد تجمع واتخذ مكانًا بين حاجبيها، وعندما رأت العجوز شامة جارة خالتها والمعروفة بالتلصص من وراء النافذة، أقبلت عليها وأمسكت ذراعها:

- أنت تعلمين يا خالة شامة أن أمي كانت بكامل عافيتها، هيا أخبريهم أنك شاهدتها وأنها كانت تنعم بصحة جيدة، فلا يمكن أبدًا أن تذهب عافيتها بين ليلة وضحاها وتصاب بما يدَّعون، ما حدث لها بفعل فاعل، أنا أعلم ذلك.

لكن تصريح مريم لم يجد صدى، أمسكت شامة بها واحتضنتها باكية:

- مريم، يا صغيرتي، هو أمر الله عليكِ تقبُّله والإذعان له، هيا يا صغيرتي تجلدي.

بعد سماع مريم لقولها اضطربت وسرت في جسدها رعدة شديدة ملكت ما بين أقطارها، فقد أدركت أنهم لم يتبيَّنوا الحقيقة ولن يفعلوا، وكأن في قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرًا، فغشيت عينيها الدموع وجُنَّ جنونها لتبدأ بدفعهم جميعًا للخروج من المكان وهي تصرخ:

- لا فائدة تُرجى منكم، هيا غادروا ما دمتم غير قادرين على تبيُّن الحقيقة، ولم تبذلوا أي مجهود لسماعها وتصديقها، غادروا! تدخلت سهير بسرعة لتمسك يديها وتبعدها، فالتفت مريم ووجهت لها نظرة حاقدة، وقالت:
- أنت وزوجك فعلتما شيئا لأمي، أنا متأكدة، لقد رأيته يمسك بها من ثقب الباب لكنك ادَّعيت أنها مريضة ولم تتركاني أراها.. أنتما من قتلها.
- كُفِّي عن الصراخ هل جننت، كيف ترمين التُّهم جزافًا؟! أمك ساءت حالتها، أنتِ رأيتها صباحًا كما أنها ماتت أمام عينيك وبحضور الطبيب، أنا سأغضُّ الطرف عن قولك واحترم حزنك، لكن لا تختبري سعة صبري أكثر.
- لِمَ؟ أستقتلينني كما فعلتِ بأمي؟! هيا اعترفي بما ارتكبت يداك، أقسم أني رأيت الدم يقطر منهما.

التفتت سهير لترى أن كل الجيران يتابعون حديثهما بفضول، فامتقع وجهها غضبًا وأخذت تبحث عن عاكف بطرفها، بعد رؤيته أشارت له للاقتراب، وقالت وهي تخاطب الجميع:

- إنها فتاة غريرة ساذجة لا تعرف ما تقول، ثم وجهت كلامها لزوجها «ساعدني يا عاكف لنقلها إلى غرفتها يكفي ما صدر

منها حتى اللحظة، لقد أفسدت جنازة أختي بتُرَّهاتها» ثم التفتت للمغسِّلة:

- من فضلك باشري عملك يجب إكرامها بدفنها سريعًا، سآخذ الفتاة لترتاح، يبدو أن أعصابها قد انهارت.

أمسك عاكف بمريم بقوة وبدأ يدفعها في اتجاه أقرب غرفة، بينما هي أخذت تصارع قبضته وتصرخ وتستنجد بالحاضرين ليوقفوا الدفن، لكنها أيضًا لم تتلقَّ منهم سوى نظرات الأسف والتعاطف.

سحب عاكف مريم للغرفة وأشار لابنته بالإسراع، فأسرعت نجلاء بوضع حبات دواء في كوب من الماء حركت محتوياته، وناولته لأبيها الذي ما زال يمسك مريم بقوة، والتي كانت تكافح لإبعاد قبضته وتهدده:

- سأفضحكم بين الخلائق ولن تستطيع إسكاتي.
- هذا ما تفعلينه منذ ساعة، لذا لن أمنعك من المتابعة، لكن بعد شرب محتوى الكأس أسرعت نجلاء للإمساك بها أيضًا وصب محتويات الكأس عُنوة في فمها، حاولت عدم بلعه، لكنهم أجبروها على ذلك، وبعد أن تأكد عاكف من ابتلاعها لكل محتويات الكأس قام بدفعها، خرج وأغلق الباب، تابعت الصراخ والعويل للنصف ساعة التالية قبل أن يصيب جفونها

ثقل حاولت المقاومة، لكن خسرت المعركة ودخلـــت في نـــوم عميق.

ألم الفراق

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل عندما بدأت مريم تستعيد وعيها، حاولت فتح عينيها، لكنها شعرت بثقلهما وبارتباك وتشوش، فبذلت قصارى جهدها للتركيز ثم فجأة تذكرت مصيبتها فاعتلج صدرها ألمًا، أسرعت بالوقوف فترنحت كالشارب الثمِل وبسرعة أمسكت بالجدار لتستعيد توازنها، ثم اتجهت إلى الباب تفتحه، فراعها سكون البيت وظلمته، تعثرت في كل ما صادفته وهي تسرع لغرفة أمها لتبدد الضجة الكبيرة السكون، لكنها لم تبالِ، فتحت الباب فتسارعت دقات قلبها وحبست أنفاسها وكتمت صرخة كادت تنطلق وهي ترى سرير أمها الفارغ وفوقه وشاحها الزهري ومسبحتها التي لم تفارقها يومًا، اقتربت من السرير بساقين لا تكاد تحملانها وقلب ملتاع، أمسكت بالمسبحة والوشاح بكل قوتها تعانقهما وتشم ريحهما، ثم افترشت الأرض متخذة وضعية الجنين وانفجرت باكية، ولم تنتبه للخطوات التي بدأت تقترب من الغرفة بعد أن أيقظتها الضجة، جلست سهير إلى جانبها فانتفضت مريم وعدلت وضعيتها لتجلس، فاقتربت سهير أكثر وحاولت ضمها إلى صدرها، فاشمأزت مريم وأبعدت يدي سهير

ممتعضة، غضبت الأخيرة من حركتها لكن حاولت السيطرة على غضبها بسرعة فالوقت غير مناسب لإثارة أي جدال قد لا يكون في صالحها، لذا حاولت تلطيف الجو ومواساتها قائلة:

- اصبري يا مريم وتجلدي، واعلمي أني إلى جانبك وسنساند بعضنا حتى تمر هذه المحنة.

وبشكل مفاجئ انفجرت مريم ضاحكة ضحكة قهر والدموع ما زالت تسيل على خديها:

- أنت حقًّا ميتة القلب والروح، أنت المثال الحي لقولهم: يقتل القتيل ويشيِّع جنازته، لا أستطيع إثبات تورطك، لكني أعلم علم اليقين أنك فعلتِ شيئًا لأمي، أنا أعرف ما رأيت، لكني كنت من السذاجة بحيث صدقت ادِّعاءكم بأنها مريضة وتركتها بين أيديكم.
- ماذا رأيت أجيبيني؟ طوال الوقت تختلقين القصص وأنا أحاول بكل جهدي خلق الأعذار لك، لكني لم أعد أحتمل ترهاتك، مدت يدها الغاضبة اتجاه مريم، لكن عاكفًا تدخل ليبعد مريم عنها ويسحبها لغرفتها:
- ليس الليلة يا سهير.

ابتعدا عن ناظري سهير، فقال:

- لَمَ تزعجين خالتك؟ ما تقولينه يؤلمها بشدة لذا تثور عليك، لكني أكثر تفهما لذا اعتمدي عليَّ فأنا سأكون عائلتك، ثم أخذ يديها بين يديه وبدأ يتحسسها بشكل مريب، انتزعت مريم يدها بسرعة، ودخلت الغرفة وهي ترتعد من الغضب وأيضًا من التقزز.

أوصدت الباب واتجهت إلى الزاوية حيث افترشت الأرض وجلست جامدة تنظر للاشيء لمدة طويلة، ثم نهضت فجأة وبدأت بقطع الغرفة الصغيرة التي لا يزيد طولها عن المترين، بجدران طلائه باهت وأرضية مبلطة بالإسمنت طالها الإهمال فانتُزع بعضه من عدة أماكن تاركًا بعض الحفر، اتكأت على الحائط المقشر طلاؤه وأخذت تفكر في وضعها، وتتساءل عن مصيرها بعد أن عدا عليها الدهر وفرَّقت المنية بينها وبين أمها، وخلَّفتها وحيدة في هذا المنزل بين أعدائها، والأدهى أنها تتألم لأنها لا تعرف كيف تثبت تورطهم:

- لَمَ لا أتجه إلى الشرطة؟ سأعلمهم بظروف الوفاة وأطلب منهم فتح تحقيق.

تحمست للفكرة والتمعت عيناها، لكن سرعان ما خبا حماسهما بعد أن تذكرت الطبيب الذي حضر الوفاة، فالشرطة بكل تأكيد

ستطلب شهادته وسيؤكد أن وفاة أمها نتيجة نقص كبير في الأكسجين، وهو العالم بالتاريخ الطبي لوالدها وكفاحها مع مرض الربو المزمن بما أنه كان صديقًا للدكتور عادل طبيبها الذي كان يتابع حالتها، وبعد وفاته نُقلت أغلب ملفات المرضى لهذا الطبيب الذي عيادته في نفس الحي، كما أن والدها توفيت في حضوره، بكل تأكيد لن يعيروا اهتمامًا لكلامها ولن يلتفتوا لطلبها.

اختنقت أنفاسها فاتجهت بسرعة للنافذة الوحيدة في الغرفة، وفتحتها لينساب الهواء للغرفة التي بدت في عينيها ضيقة حتى صارت جدرانها تكتم أنفاسها، أخذت شهيقًا حتى امتلأت رئتاها وحبسته ثم أرسلته زفيرًا قويًّا وأعادت العملية عدة مرات في محاولة منها لتخفيف بعض الضغط الذي يسببه قهرها، أخذت تتطلع للخارج لترى المدينة تمتد أمامها، فالمنزل كان في مكان مرتفع نسبيًّا يتيح رؤية المدينة بأكملها؛ خاصةً في الليل حيث تتحول إنارة المنازل إلى عرض ساحر للأضواء، تطلعت مريم إلى المنازل القريبة وامتد بصرها إلى تلك التي تبدو في آخر بقعة، شوَّش تأملها تحرك شخص قرب باب منزلها كأنه غادر المنزل أو عاد إليه، لكنها لم تعُد تهتم بما يحدث، بل تابعت تأملها وقالت محدثة نفسها:

لا بد أن خلف كل باب من أبواب هذه المنازل تكمن قصة، لكن بكل تأكيد ليست كل تلك القصص بمثل سوداوية قصتي، كم أتمنى لو لم نأتِ لهذه المدينة!! لو بقينا في منزلنا بالقرية ولو اهتممنا بمزرعتنا الصغيرة، يكفينا ما تجود به علينا لا نطمع في أكثر من ذلك، أكره اليوم الذي قررت فيه أمي أن الأفضل لي متابعة الدراسة هنا، وأن ألتحق بعد الثانوية بالجامعة، كانت تحلم بتخرجي وكانت تريد الافتخار بي والافتخار بنفسها من خلالي، كل تلك الأحلام انتزعت مني وصارت من الماضي، حتى إنها لم تعد تخصني أو تعني لي شيئًا، كأنها تعود لشخص آخر لا أعرفه.

أتساءل الآن وأنا أرى ظلمة مستقبلي، لِمَ لا أغادر أنا أيضًا؟ لِمَ استمر في الكفاح؟ طعنات القدر تركتني جريحة أنزف، كل من أُحبُّ رحلوا دون عودة، أولًا أبي ثم أختي رشا والآن أمي، فلمَ لا أذهب أنا أيضًا إلى حيث ذهبوا؟ إلى حيث الصفاء والأمان، نظرت إلى يدها التي ما زالت تمسك بالوشاح والمسبحة، وقالت: يمكنني أن أُعلِّق وشاح أمي الطويل في الشباك وألفه حول رقبتي وأترك ساقاي معلقتين في الهواء، أو ربما أتناول كمية كبيرة من الأدوية كتلك التي أجبروني على أخذها، أو الأفضل أن ابتلع حبات مسبحة أمي على الأقل لن أدع أيديهم القذرة تدنس حباتها النقية، هناك طرق كثيرة للرحيل ما عليَّ سوى اختيار واحدة وينتهي العذاب.

غشيت عينيها الدموع مرة أخرى فتركتها تنساب دون ردع، لكن فجأة ألَّم بها صداع قوي كأن شريطًا مؤلمًا مشدودًا حول رأسها، فأصابها تشوُّش ذهني مصاحَب برؤية مزدوجة، أمسكت رأسها بين يديها تضغطه لتوقف الألم، لكنه ازداد سوءًا بعد ذلك، فرشح جبينها بالعرق وابيضت شفتاها، حاولت التماسك أكثر لكن أُغمي عليها وسقطت أرضًا.

* * *

عندما عاد عاكف إلى غرفته كانت ابتسامة بذيئة ما زالت تعلو وجهه فحاول إخفاءها بمجرد أن لمح سهير التي كانت تنتظره شاحبة، رمته بنظرة طال أمدها قليلًا فتراجع للخلف بشكل تلقائي متوجسًا وحبس أنفاسه للحظات، ثم أرسلها بعد أن قالت بشكل متشنج:

- تلك الفتاة يا عاكف ستشكل خطرًا علينا، لا تنفكُّ تعيد اتهاماتها وترميها في وجهنا دون خوف، لقد باتت تقضُّ مضجعي كالشوكة في الحاصرة.
- دعيها يا سهير تقول ما تشاء، لم يصدقها أحد البارحة ولن يصدقها اليوم، لذا ارتاحي بالًا ولا تقلقي نفسك.

فردَّت بتبرم:

- ألا تعلم أن تكرار نفس القول على المسامع يولِّد الشك، وتلك الفتاة لن يثنيها شيء عن تكرار اتهاماتها أمام الحادي والبادي كآلة فونغراف أصابها التَّلف.
- معك حق! ربما يجب أن نحتجزها فلا تقابل أحدًا أو نبعدها، كأن نُدخلها المشفى، فأعصابها بالأساس محطمة، كما لها تاريخ طبي في هذا المجال.
- فلتساعدني يا إلهي، عاكف لقد ذهب المشروب بعقلك ولم تعد تفكر في أبعد من أنفك، وعلى أي أساس سيمنحنا القاضي وصايتها إذا لم نظهر له أننا نوفِّر لها جوًّا عائليًّا هي تحتاجه في هذه الفترة، وفكِّر أيضًا كيف سيمنحنا الإذن بحق التصرف في التركة إن لم يلمس محبتنا لها وسعينا لتوفير الأفضل لها، أظن عليَّ أن أصبر على رعونتها وسوء تصرفها لشهرين آخرين، شهر للفوز بوصايتها وربما شهر أو أقل ليمنحنا إذن التصرف في الأملاك، خاصةً وإنه سبق وأعطى موافقته لسعاد بعد أن أوضحت له أن الانتقال للمدينة في صالح القاصر مريم ونحن أيضًا سنتمسك بنفس حُججها ليمنحنا موافقته..

صمتت للحظة مفكرة ثم تابعت: أظن أن عليَّ غـــدًا تســـجيلها في نفس المؤسسة التعليمية التي اقترحتها ســـعاد اســـتعدادًا للموســـم الدراسي المقبل، كما سأدفع أقساط شهرين أيضًـــا هـــذا ســـيظهر جِديَّتنا، ابتسمت ابتسامة انتصار وتابعت بكل تأكيد القاضي لـــن يستطيع الرفض، أما مريم فسأجد طريقة ما لكبح جماح لسانها.

ظهور رشا

مر يومان كانت مريم تستعيد فيهما وعيها للحظات قبل أن يُغمى عليها من جديد، ولم تستعِد وعيها بالكامل إلا في اليوم الثالث، كان التعب والنَّصب قد أخذا منها مأخذًا كبيرًا، ولا عجب في ذلك بعد أن أهملها كل من بالمنزل ولم يلتفت لحالها أحد، حاولت أن تنهض، لكن أحست بالدوار وبثقل في قدميها، فعادت للاستلقاء حتى يزول، فجأة شَمَّت رائحة عطر تعرفه جيدًا وتطوق له، عطر زهر الرمان الذي كانت تحبه أمها كثيرًا وتضع منه بضع قطرات فقط على نقاط النبض عندما يكون هناك حفل أو مناسبة، أغمضت مريم عينيها نصف إغماضة تشم العطر بشغف، وتتساءل في نفس الوقت كيف تشمه ووالدتها غائبة؟ فأوعزت ذلك لحنين قلبها، لكنها تقسم أنها تشمه بقوة وكأنه موضوع تحت أرنبة أنفها، ألقت نظرة تفقديَّة على المكان، وهي تفكر في أن أحدهم وضع زجاجة العطر في الغرفة ليزيد من عذابها، جالت بطرفها علَّها تهتدي إلى مكان تواجده، فجأة اصطدمت عيناها بعيني تحدقان فيها بتمعُّن كادت تصرخ، لكن منعتها الغريبة بقولها:

- لا تصرخي يا مريم فأنا هنا لمساعدتك.

- لكن من أنت أنا لا أعرفك؟ ثم كيف دخلت هنا؟

ابتسمت الغريبة وأومأت:

- أحقًّا لا تعرفينني يا مريم؟ هيا انظري لي بقلبك ستتذكرينني بسرعة.
- أتمزحين معي! لا بد أنها خطة جديدة تحيكها سهير.
- أنا لا أمزح معك، ثم ألم تغلقي غرفتك من الداخل ولا أحد تفقدك كل هذه المدة لذا استمر مغلقًا منذ ذاك الوقت، ألا تذكرين؟

تذكرت مريم أنها بالفعل أغلقت الغرفة بعد تحرش عاكف بها، فأعادت نظرها إلى حيث تقف الوافدة الجديدة ونظرت لها بريبة فقالت الأخيرة:

- هيا يا مريم فالقلب مرآة الحقيقة وإنما الجوارح أتباع وخدم، دعي الدفة له.
- لم تقتنع مريم.
- هيا ابحثي، أنا بين جوارحه.

انتفضت وظلت تدور بطرفها هنا وهناك كالمختبِل وأعلنت وصوتها مليء بالغرابة:

- يا إلهي لا يمكن! لا بد أني أصبت بالجنون فلا يعقل أن تكـــوني رشا، أعتقد أني لا زلت نائمـــة وأني في حلـــم، فـــالأموات لا يظهرون إلا في الأحلام، ارتجفت رموشها وقالت بصوت أجش معبأ بالدموع، كنت حبيبتي الصغيرة التي تركتني وغادرت دون رجعة، عقدت حاجبيها واستجمعت شتات نفسها، وقالت: لا يمكن أن تكوني هنا، أظن عليَّ الاستقاظ وإن كان الحلم رائعًا.
- لست في حلم أنا هنا أمامك.
- إذن أنا أُهلوس، فلا يمكن أن تكـــوني واقعًـــا، فـــالأموات لا يعودون، لا بد وإني عدت لدهليز الضلال وعدت لرؤيتهم مرة أخرى.
- هل يهم إن كانت هلوسة أو كان الأمر ضلالًا كما تســـمينه، أنت بحاجتي وإن سألتني عن رأيي أقول قلبك من أحضرني بعد أن قرر عقلك ارتكاب حماقة، ماذا تعنين بمغادرة المكان، أتريدين الانتحار يا مريم، بعد كل ما فعلوه تريدين الاستسلام وتركهم دون عقاب.

أجابت بأسى:

- ماذا تريدينني أن أفعل! لقد سُدَّت في وجهي جميع المسالك، فلبس أديم وجهها غبرة وانفجرت باكية، وتابعت بصوت متقطع مليء بالأسى: «كلمتهم مقابل كلمتي وهم يملكون الأفضلية فلا دليل بين يديَّ، كانت جثة أمي ستحكي الكثير لو استطعت منع دفنها، لكني خذلتها حتى في هذا الأمر البسيط، لذا دعيني أستر سوأتي وأغادر فلا فائدة تُرجى مني.
- هناك سبل عديدة وشعاع الرحمة لا يزول، يمكنك بداية البحث عن طريقة ما لإجبارهم على قول الحقيقة، ربما عليك مراقبتهم وحتى استفزازهم وإخراجهم عن طورهم، ربما ينكشف شيء غاب عن ذهنك، أنا متأكدة أنهم عاجلًا أم آجلًا سيرتكبون غلطة ما.

تأملت مريم قول الوافدة الجديدة ورأت أنه يحمل الصواب في كل كلمة، فلا يمكنها العودة للدهليز النفسي الذي كانت تعيشه وإلى أفكار الانتحار التي لازمتها لفترة طويلة حتى كادت تقضي عليها، بعد أن قطعت شرايين يدها ولولا تدخل أمها لكانت الآن ميتة، كما لا يمكنها المغادرة قبل أن يدفعوا ثمن جريمتهم، فقالت مؤيدة:

- ربما معك حق، ثم أخذت تنظر حولها، ثم تعود بنظرها إلى حيث تقف الوافدة وأعادت الكرة عدة مرات تحاول التأكد فيها من أنها لن تختفي بمجرد إغفال النظر، اقتربت منها أكثر وقالت: أنت لن تختفي أليس كذلك؟ فأومأت الوافدة بالسلب، وبرجاء تابعت مريم: أنت يا رشا ستساعدينني أليس كذلك؟
- بكل تأكيد يا مريم سأساعدك وسأبقى دومًا إلى جانبك، اطمئني جئت لأبقى.

ابتسمت مريم لهذا القول الذي أكسبها قوة وجَلَد وصحت عزيمتها في أن تسير على هذا الدرب، بعد هذا القرار ارتاحت روحها ولأول مرة منذ وفاة والدتها تحس بالسلام.

كان الظلام ما زال سائدًا في المكان فاقترحت رشا على مريم العودة للاستلقاء فقد بدا وجهها شاحبًا بعد صداع الرأس الرهيب الذي ألَّم بها:

- عودي للاستلقاء والراحة فالوقت ما زال مبكرًا واطرحي كل الأمور جانبًا؛ فنحن بحاجة إلى كل تركيزك لأننا غدًا سنقوم بمراقبتهم كخطوة أولى.

والغريب أن مريم استسلمت للنوم من جديد بمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة.

أيقظها صوت قطرات المطر على زجاج النافذة حاولت فتح عينيها، لكنها وجدت صعوبة في ذلك، فصداع رأسها ما زال مستمراً رغم أنه صار مقبولًا وليس بحدة البارحة، بقيت مكانها للحظات ثم تذكرت رشا ففتحت عينيها بسرعة، جلست وأخذت تمسح ببصرها المكان، لكنها كانت الوحيدة بالغرفة، فأسندت جبهتها إلى الحائط البارد وأخذت تتنفس ببطء، وتحدث نفسها إن كان ما عاشته البارحة حقيقي أم أنه من نسج خيالها، انتظرت لمدة، لكن رشا لم تظهر فعزمت أن تعتمد في انتقامها على نفسها، وإن ظهرت رشا مجددًا ستكون عاملًا مساعدًا فانتقامها يخصها هي، تفقدت ساعة يدها وذهلت حين وجدتها تقارب الحادية عشرة أخذت تغمغم بتبرُّم، بدلت ملابسها وقررت تفقد الموجودين ومباشرة خطتها، لكن عليها أولًا تفقد غرفة والدتها لعلها تعثر على شيء ما أو تلاحظ أمرًا، تسللت إلى هناك وهي تمشي على أطراف أصابعها مارة بغرفة سهير حاولت تجاوزها بخفة عندما استوقفها صوت قرب أُذنها:

- اقتربي أكثر من الغرفة ربما نسمع شيئًا ما!

التفتت مريم إلى مصدر الصوت فوجدت رشا تقف إلى جانبها، استرخت عضلات وجهها وابتسمت بفرح، واقتربت من غرفة خالتها أكثر، لكنها لم تسمع شيئًا.

- اقتربي أكثر يا مريم.
- إذا اقتربت أكثر سينفتح الباب فأنا أضغط عليه، على أية حال أنا لا أسمع أي شيء، توقفتْ قليلًا ثم قالت: ربما بعد.. أرهفي السمع أكثر، أسمع ما يبدو أنه شخير أحدهم، لم تتردد ففتحت الباب برويَّة وتطلعت في الغرفة الخالية إلا من أحدهم ما زال نائمًا.
- إنه النتن عاكف، لقد نسيت أنها عادته ينام طيلة النصف الأول من اليوم ويخطط في النصف الثاني لما سيرتكبه من معاصي في الليل، من الأفضل أن أبتعد فآخر ما أريد هو رؤية وجهه، كما يبدو أن سهير غير موجودة، سأتفقد الدور الأرضي لأتأكد.

بعد جولة سريعة في المنزل تأكدت من غياب سهير وابنتها، فاتجهت إلى غرفة أمها بسرعة، عندما فتحت الباب استقبلتها رائحة تلسع الأنف لمادة الكلور، يبدو أن أحدهم قام بتنظيف جيد للغرفة، بحيث أُزيل السرير ولم يبقَ بالغرفة سوى بضع كراسٍ وطاولة مهترئة، وقفت هناك لبرهة تنظر حولها قبل أن تستسلم:

- الواضح يا رشا أنهم يسبقونني بخطوة، يجب أن أستدرك كل هذه الأخطاء التي ارتكبتها، ثم زفرت بضيق وقالت: على ما يبدو فإن يومنا سيكون طويلًا وعقيمًا، فلا يمكنني تفتيش غرفة سهير وعاكف بالغرفة، كما لا يمكنني البقاء معه في المترل فهو مصدر حقيقي للخطر، الأسلم لي المغادرة رغم أني بتُّ أكره الخروج، لكن ليس لي حيلة فهو أخف الضررين!

وضعت دثارًا فوق كتفيها وخرجت حيث واجهها رذاذ خفيف فابتسمت للقطرات التي قبَّلت وجهها، ثم التفتت لرشا:

- أعشق مطر مايو فهو يلطف الأجواء رغم أنه عدو منتجي الحمص فهو يفسد فترة الإزهار.

بعد قولها حثت مريم الخطى وانعطفت عند زاوية الطريق ثم عبرت للجهة المقابلة، نظرت خلفها وبعد عدة خطوات أعادت الكرَّة قبل أن تضاعف سرعة السير.

- أبطئي سيرك يا مريم أنت هرولين لقد قُطع نفسي وأنا ألحقك.
- أنا أكره الجلبة وأكره تحديق الناس بي، أُحس بالتوتر والتململ، أشعر أن كل العيون متجهة نحوي، أريد فقط أن أبتعد إلى مكان خالٍ.
- توقفي الآن وانظري لي.

عندما فعلت تابعت رشا:

- الآن انظري للخلف إلى الطريق الذي قطعتـــه، ثم انظـــري إلى الأمام إلى الطريق الذي ما زال عليك قطعه، هل ترين يا مـــريم هذا هو طريقك ما كنت لتصلي إلى هنا لو لم تعزمي الأمر على الوصول، كما لا يمكن لأحد أن يثنيك عن المتابعة، وإذا أمعنت النظر ستجدين أن لا دخل للناس بعزمك ورغبتـــك في تحقيـــق مرادك، لذا تجاهلي أي شيء وكل شيء وركزي على نفســـك فالأمر عائد لك، ووجود الناس لن يغير شـــيئًا إلا إن تـــركتهم يفعلون، ولأصدقك القول فأنا أرى أنهم منشـــغلين بـــأمورهم وأبدًا لم يهتموا بمرورك إنما هي فكرة زرعتها فقط في رأسك.
- لا أدري ربما، لكن أريد متابعة السير ليتروي هذا الشعور.

لمحت طريقًا جانبيًا معزولًا أعجبها منظره الهادئ فسارت فيـــه لتبتعد أكثر، تابعتا السير إلى أن اقتربتا مـــن ســـور المقـــبرة، فشحبت مريم شحوب الموتى أغمضت عينيها وهزت رأسها في ارتباك.

- تعالي يا مريم نزور والدتنا أنت بلا شك اشتقت لها وهي أيضًـــا اشتاقت لك، تعالي ندخل.

تراجعت للخلف بحركة لا إرادية:

- ليس الآن سأفعل فيما بعد، عندما أشعر أني أستحق زيارتها.

نظرت رشا لها بتساؤل واضح فتابعت مريم بعيون محملة بالذنب:

- أنا أيضًا مسؤولة عن موتها، لقد صدَّقت ما قالوه تلك الليلة وتجاهلت نداء العقل خاصةً أني سمعت صرختها، لكني تجاهلت نداء العقل وصدقت ترهاتهم: ربَّما لو تدخلت في الوقت المناسب ما كان سيحدث ما حدث.
- مريم لا تحمِّلي نفسك فوق طاقتها، لم تكوني على علم بخططهم كما لم تعلمي ما في صدورهم من سواد.
- ربما، لكنني في كل الأحوال لا أستحق زيارتها الآن، سآتي بكل تأكيد، لكن بعد أن آخذ بحقها، ربما، لكنني في كل الأحوال لا أستحق زيارتها الآن، سآتي بكل تأكيد، لكن بعد أن آخذ بحقها، صمتت قليلًا وتقدمت خطوتين إلى الأمام تنظر للقبور المتراصة، أطرقت لفترة تمعن التفكير وقالت: « أتعلمين يا رشا أنا لم أخَفْ أبدًا من الموت بل بحثت عنه، وحاولت معانقته عندما قطعت شرياني، لكنه أبى معانقتي، أنا أعتبر الموت جزءًا من حياتنا فهو موجود في تكويننا وحاضر في كل ساعة داخلنا، ألا تعلمين أن مليارات الخلايا الحية تموت داخل الجسم، الموت موجود في الدم وحاضر في الجلد، حتى إن نصف غبار منزلنا المتراكم على

المنضدة والسجاد هو من خلايا الجلد الميت، الموت ليس عدواً يجب التغلب عليه، بل هو جزء من دورة الحياة الجسدية، وهو أيضًا بداية لمرحلة أبدية بعد انقطاع الحياة الجسدية، الموت ليس رديئًا، ولأصدقك القول أنا بعد أن كنت أراه منطقة راحتي صرت اليوم أكره مجابهته بعد أن اختمرت فكرة الانتقام في رأسي، لقد غادرت روحي الطيبة وجوهرها النقي إلى غير رجعة، وخلَّفا وراءهما جسدًا وعائي يزداد منسوب السواد فيه كل يوم، وللأسف هو كل ما سأقدمه للتراب.

- أنا لا أستطيع فهمك، لكن الاعتقاد باللا جدوى والعدمية مردُّه حالة التيه والتشتت وربما أيضًا فراغ روحك فاختل لذلك ميزان القيم لديك، أظن أن رؤيتك للعالم رؤية سيزيفية تفتقر البحث عن المغزى وإدراك فن العيش، وفي النهاية الحياة هبة ليس لك الحق برفضها، وعمومًا الآن أنا موجودة كائنة في ثنايا عقلك وقرار العيش بيدي أنا أيضًا.

صمتت مريم تتدبر تلك الكلمات بعمق إلى أن تنبهت للوقت وقالت: ها قد مال ميزان النهار أظن علينا العودة إلى المترل فلا بد أن عاكفًا غادره بحلول هذه الساعة.

كان طريق العودة هادئًا يسود أجواءه الصمت، لم يكسره سوى صوت الحصى تحت قدميها، فجأة توقفت عندما لمحت نجلاء برفقة شاب يتجاذبان الحديث، وكان من الواضح أن بينهما علاقة ما، فأسرعت للاختباء خلف شجرة قريبة، وقالت لرشا:

- إذن نجلاء تخرج مع أحدهم، وابتسمت ابتسامة فاترة ثم تابعت محدثة رشا: أظن في النهاية يومنا لم يكن عقيمًا بالكامل فقد علمنا شيئًا لم نكن نعرفه، من الأفضل أن أقوم من اليوم فصاعدًا بمراقبتها فقد يعود ذلك بنفع ما.

انتظرت مريم إلى أن ابتعدا وهما يمسكان بيد بعضهما، فأسرعت الخطى من طريق مختصر لعلها تصل قبل عودة نجلاء، بعد وصولها اتجهت مباشرة إلى غرفتها.

* * *

أخذت سهير تذرع الغرفة تحاول السيطرة على غضبها وهي تستمع لعاكف الذي عاد لتوّه من الخمارة وعلامات الرعب بادية على ملامحه:

- أنت تعلمين يا سهير أنهم يهددوني بالسجن ما لم أدفع، عليك مساعديّ يا حبيبتي فأنت تعلمين أنهم لا يرحمون أحدًا، بالله

عليك لا تجعليني أتوسل، فأنا أعلم أنه ما زال معك بعض المال الذي أخذته من أختك سعاد.

- والذي أخذت نصفه في المرة السابقة وبدل أداء الديون أنفقته على المشروب، أتعلم يا عاكف عليك اللعنة وعلى ديونك، ثم تشنجت عضلات وجهها وأضافت بصوت مهزوز من الغضب: المبلغ الذي كان مع سعاد لم يغطِ كل المصاريف التي انهالت عليَّ من كل صوب، ثم لا تنسَ أنه مجرد مقدم بيع لبيتها في القرية، وأنت أخذت نصفه والنصف الثاني استعملته البارحة لتسجيل تلك المختلة في المؤسسة كما دفعت نظير شهرين دراسيين، لم يعد لديَّ فلسًا واحدًا لتأخذه لذا اطلب منهم مهلة لسداد الدَّين، ثم ركزت عينيها على عينيه وقالت: لمصلحتنا جميعًا ابتعد عن الخمر والقمار بسرعة قبل أن نغرق أكثر وينكشف كل شيء، صمتت لفترة ثم تابعت: لا تجعلنا يا عاكف كبش فداء لتزواتك، وصدقني إذا استمر الوضع على ما هو عليه ستكون نتائجه وخيمة.

- يا إلهي لا سمح الله، سكت برهة ثم قال بسخط: اسمعي يا سهير، الدائنون لن يرضوا لقد أمهلوني أسبوعًا من قبل ولن يفعلوا مجددًا، ولا تنسي أني قمت بأغلب العمل القذر لذا عليك ألا تسمحي لهم بسجني.

ابيضَّ وجه سهير ونظرت له جاحظة العينين:

- إياك أن تذكر ما حدث مرة أخرى أنا أحذرك، ثم أخذت نفسًا عميقًا وأضافت: اسمع يا عاكف حقًّا لم يتبقَّ لدي سوى بضع دراهم لاقتناء مستلزمات البيت، حتى لو أخذتهم لن تستفيد شيئًا فهم لن يقبلوا بالخمسمائة درهم المتبقية، لذلك اطلب منهم مهلة للسداد.

ثارت ثائرة عاكف واتجه إلى باب الغرفة وهو يتذمر ويلعن ثم خرج صافقًا الباب خلفه.

أغمضت سهير عينيها وزفرت بقوة ثم هزت كتفيها متجاهلة كل ما حدث فقد باتت معتادة على خيبات الأمل التي يحملها لها عاكف في كل تصرفاته، لكن هذه المرة تسبب بخيبة الأمل لنفسه، تنهدت وحدثت نفسها أنها كانت على صواب عندما أخفت مدخرات سعاد عنه ولم تحدثه عنها فلو فعلت لاستولى عليها أيضًا، نظرت للباب لبرهة ثم اتجهت إلى وسادتها وسحبت سحَّابها لتتأكد من وجود المال داخل حشوها، ابتسمت بعد أن تحسسته ثم أعادت السحاب وغادرت الغرفة لتناول الفطور.

دافع الجريمة

تحاملت مريم على نفسها ونهضت تسحب في اتجاه غرفة خالتها بعد أن سمعت المشادة الكلامية التي بدأت منذ لحظات بين سهير وزوجها، مستغربة من توقيتها فعادة كانت مثل هذه المشاحنات تبدأ بعد استيقاظ عاكف عند منتصف اليوم، اقتربت أكثر من الباب، انضمت لها رشا فسكنتا دون أي حركة وحاولتا التنصت، لكن سرعان ما سمعت مريم خطوات تقترب فابتعدت عن الباب ودلفت إلى الغرفة المجاورة، تلاها تذمر عاكف وهو يغلق الباب بقوة ويبتعد انتظرت للحظات ثم حاولت الخروج من مخبئها، لكن فُتح باب الغرفة من جديد لتخرج سهير وتنزل السلم، ابتهجت مريم وأسرعت في اتجاه الغرفة:

- أظنها فرصة مناسبة للتفتيش ربما نجد شيئًا ما!
- هل تفكرين في شيء محدد نبحث عنه؟
- لنبحث عن أي شيء مثير للريبة، أنا لا أعلم، أي شيء يمكن أن يساعدنا في فهم ما حصل!

كانت المرة الأولى التي تدخل فيها مريم للغرفة التي شاهدتها من قبل من أمام الباب أما الآن وهي تلجها تحس أنها أصبحت أصغر،

حاولت الإسراع فلم يكن بالغرفة سوى سرير يتوسط الغرفة وإلى جانبه طاولة جانبية ودولاب قديم وهذا يعني أماكن محدودة للتفتيش، اتجهت إلى الدولاب تبحث فيه عن أي شيء قد يكون مفيدًا، قلبت الموجودات بعناية بالغة لكنها لم تجد شيئًا يثير الاهتمام فأغلقته، سحبت كرسيًّا لتبحث بين طيات الأغطية الموضوعة فوق الدولاب، لكن استرعى انتباهها ملف يبرز جزء منه من درج طاولة السرير فأسرعت إلى مكانه فتحته وبدأت تتفحص محتوياته، لتجد أنها مجموعة استمارات تم تعبئتها مُعنوَنة بطلب الوصاية على قاصر.

التفت لرشا وقد علا وجهها صدمة:

- أنا المقصودة بهذا الطلب؟
- أظن ذلك فلا أحد غيرك هنا قاصر، كما لا أحد لك غيرها، فطبيعي أن تكوني تحت وصايتها.
- ليس بالضرورة، أنا أكرهها فكيف أُربط إلى جوارها كل هذه المدة إلى غاية بلوغي سن الرشد، ثم أنا يمكنني العناية بنفسي ولا أحتاج أحدًا.
- القانون واضح في مثل هذه الحالات يا مريم، أنت في نظره قاصر لذا يحدد من يدبر شؤونك إلى أن تبلغي سن الرشد، أظنك تعلمين ذلك وإنما تعاندين فقط.

- إنها قاتلة، يمكنني أن أقدم طلبًا للطعن في وصايتها، حتى لو تطلَّب الأمر سقوطي عند قدمَي القاضي وطلب دخولي لدار رعاية من هم دون السن القانوني.

– وماذا ستستفيدين من وضعك في هذه الدار غير الابتعاد والانحراف عن المسار الذي رسمناه، وجودنا هنا ضروري لذا دعيها تفعل ما تشاء فالمهم هو النتيجة.

- معك حق عندما يتعلق الأمر بها يُعمي الغضب، لكني سأعمل على إدارته وجعله في صالحي لا ضدي.
- أحسنت، والآن ما تلك الوثيقة الأخرى التي بين يديك.
- دعيني أرى، هي توصيل عن الأداء عن شهرين صادر من المؤسسة التعليمية التي اخترقها مع أمي، خرست لفترة مذهولة ثم قالت: سهير تكرهني فلمَ تقوم بدفع كل هذا المبلغ لأجلي خاصةً في هذه الأوضاع المادية السيئة التي تعيشها، أظن أن في الأمر شيء غير طبيعي، لا بد أن لها مصلحة ما من فعلها هذا.

حوّلت بصرها عن الاستمارة إلى الاستمارة الأخيرة التي يبدو رسمها بشكل مختلف تقرأها، فظهر في عينيها تفكير عميق وبحركة لا شعورية أطبقت بشدة على فمها، وقالت ببرود مخيف:

- السعي بسرعة للوصاية عليَّ ودفع أقساط الشهرية أثارا شكي، لكن هذه الوثيقة ورفعتها للأعلى قطعت لدي الشك باليقين هي وثيقة طلب «حصر الممتلكات»، هذا هو الدافع يا رشا أنا لا أريد أبدًا التصديق، لكن كل شيء يشير إلى أنهم يخططون للاستيلاء على الإرث عن طريق الوصاية.

ابيضَّ وجهها ثم قالت بصوت هادئ عكس تعابير وجهها التي تنبئ أنها قد بلغت أقصى درجات الغضب:

- عندما أُنسِّق الأحداث وتتابعها الزمني يتضح لي أن سهير وضعت مخططًا يجمع الإصرار والترصد، فلو أزالوا أمي عن الصورة سيكون كل ما أملك تحت تصرفهم ليس البيت والمزرعة، بل هذا البيت أيضًا فهو إرث مشترك بين أمي وسهير، جلست فلم تعد ساقيها تحملانها وأضافت بقسوة: وهكذا أجد نفسي بطريقة ما سببًا فيما حصل لقد اعتمدوا على وجودي وسني الصغير لبناء خطتهم، ثم اختنق صوتها بالدموع: أنا العنة أمي.
- توقفي عن جلد النفس فلا علاقة لك بذئبية هذه العائلة، كل ما يجب عليك القيام به هو النظر للنصف المملوء من الكأس فقد توصلنا إلى الدافع وعلينا الآن المتابعة، أرجوك لا تفقدي

تركيزك أنت الآن على الطريق الصحيح، ومع قليل من الصبر ستنجحين.

نظرت لها مريم بنظرة تدل على الألم الذي يعتصر داخلها، ثم بقبضة مشدودة اتجهت ناحية الحائط وأفرغت غضبها عليه، وبعد أن هدأت ثائرتها حاولت استجماع شتات نفسها من جديد ثم اتجهت ناحية السلم لتنزل للدور السفلي ووجهها تعلوه سحنة داكنة مخيفة.

رأتهم مجتمعين عند طاولة الإفطار فاختارت مريم الجهة التي تسمح لها برؤيتهم جميعًا، وتمكنها من متابعة أية حركة تصدر عن كل واحد منهم، بما فيهم عاكف الذي انضم لهم بعد أن هدأت ثائرته، ارتجفت رموشها السوداء وهي تتساءل كيف حُشرت مع هؤلاء، فالبغض والكره واضح في نظرات كل من نجلاء وسهير أما نظرات عاكف فهي نظرات استحواذية جريئة، كان يتأملها بلا حياء، لكنها تجاهلته فهي تعلم أنه كائن حيواني توجهه الغريزة، على عكس خالتها الداهية، بعد أن رمقتهم جميعًا، أعادت النظر إلى سهير، فرفعت الأخيرة رأسها فجأة لتجد مريم تحملق فيها بتركيز مخيف:

- لَمَ تنظرين إليَّ هكذا؟

لم ترد مريم وبقيت تتأملها بشكل مستفز بدءًا بفمها وهو يتحدث ثم عينيها اللتين تظهران خبثًا واضحًا، فقدت سهير صوابها وأخذت تهز ذراع مريم بقوة:

- توقفي حالًا أنت تفعلين ذلك عن قصد أليس كذلك؟ تحاولين جعلي أتوتر وتحاولين إخراجي عن طوري.

لم تُجبْ فقد كان عقل مريم يردد فكرة واحدة:

- لَمَ لا أنتزع روحها الآن وينتهي كل شيء، تردد صوت رشا في عقلها يقول: «لا تقومي بأية حماقة، انظري! الآخرون هنا ولن يسمحوا لك بإيذائها، تذكري أنك تضعين كل فرص النجاح القادمة على المحك».

استرخت قليلًا وخرجت تدريجيًا من حالة التشويش لتجد سهير ترتجف من الغضب، وصوتها ما زال يعلو في المكان:

- أنت بلاء لن أستطيع احتماله أكثر، أعلم أنك تفعلين ذلك عن قصد، لكني لن أصبر عليك بعد الآن، حالًا عودي إلى غرفتك وسأمنع عنك الطعام إلى أن تسترجعي تعقلك.

غادرت مريم بعد أن حدجتها بنظرة كره واعتلت السلم ببطء وهي ما زالت تنصت إلى صوت خالتها المرتجف:

- يا إلهي تلك الفتاة حقًّا مجنونة، نظراتها تحمل برودًا مخيفًـــا، لـــن أحتمل وجودها أكثر إنها توترني.

اقتربت نجلاء من أمها تربّت على كتفها:

- تجاهليها يا أمي إنها تفعل ذلك متعمدة.
- نجلاء معها حق يا سهير، ثم أضاف عاكف: إن أردت يمكنـــني تلقينها درس لن تنساه أبدًا.
- لا يمكنك، ليس الآن، لكن يمكنني إبعادها عن ناظرَيَّ، اسمـــع.. تلك الغرفة بالسطح لما لا نصلح جدرانها قليلًا لتصعد إليها.
- سنحتاج للمال لفعل ذلك يا سهير فأحد جدرانها تهدَّم نصـــفه نتيجة الرطوبة، إنها مصاريف إضافية لا حاجة لنا بها احجزيهـــا في الغرفة وينتهي الأمر.
- لَمَ كل ما أقوله لك عليَّ إعادته، فقط افعل ما أقوله وســـأتكفل بالباقي وتابعت مستدركة بعد أن رأت نظرته، سأطلب ســـلفة من العجوز شامة أظنها لن تردني خائبة، الآن خذ الخمســـمائة درهم ريثما أحضر منها الباقي وأحضر مواد البناء وتحـــدث إلى السيد حلمي البنَّاء لمباشرة الإصلاح.

* * *

جلست في الغرفة تنظر إلى السقف بعد أن غادرت رشا غاضبة، لم تعلم مريم ما أصابها فقد شعرت بتشوش ذهني عندما رأت سهير تلتهم الطعام، أغضبها أنها تتابع حياتها دون أن تلتفت لما فعلت بحياة الآخرين، وعندما فكرت بمهاجمتها كان رد فعل طبيعي عن الظلم والإحساس بالعجز.

بدأت بالابتسام وهي تشم عطر زهر الرمان ثانية:

- أظنها كانت رمية صائبة بدون رامٍ لقد اهتزت سهير حتى أعماقها من مجرد نظرة قاتمة، الحقيقة بدت شخصًا متوترًا وسريع الغضب وهذا جيد.
- رشا لقد ظننت أنك غادرت لأنك غاضبة.
- لا يمكنني الغضب منك كان رد فعلك طبيعيًّا، أنا أيضًا قهرت عندما رأيتها أمامي،

رمقت مريم وأضافت، كما أني فخورة بك فقد تمالكت أعصابك حتى بعدما طردتك ومنعت عنك الطعام.

- عرفت أسوأ من ذلك، كنت سأواجهها بحقيقة أنها تصرف من مال أمي، لكني أمسكت لساني وفكرت في أن أمد لها الحبل حتى ترتاح ثم ألفُّه ببطء حول رقبتها.

قربت ركبتيها لتضع عليهما رأسها ولأول مرة سألت نفسها السؤال الذي حاولت تجاهله، هل تستطيع مواصلة هذا الطريق الذي يبدو الآن صعبًا مع كل هذه الضغوط النفسية التي تزيدها سهير سوءًا بتصرفاتها.

علا صوت معدتها الفارغة، فوضعت يدها على بطنها تحاول الضغط عليه، قدر الإمكان إذ يصعب عليها أن تجابه بالطرد من المطبخ، جلست مكانها إلى أن غلبها النعاس ونامت.

عند الفجر كان وقت الزيارة الإلزامية للمطبخ قد حان بعد أن بدأ صوت معدتها يعلو ويستمر دون انقطاع، حاولت السير على أطراف أصابعها كي لا تثير ضجة، نزلت السلم وتسللت إلى المطبخ، بحثت في الثلاجة فلم تجد سوى بعض الجبن والخبز أخذته وتسللت عائدة، عندما همَّت بصعود الدَّرج رأت نجلاء تغادر المنزل، فاستغربت الأمر فقد كان الوقت مبكرًا، تتبعتها مريم بطرفها تحاول معرفة وجهتها إلى أن غابت عن ناظريها، فقررت عدم المغامرة بملاحقتها فلا فائدة من ذلك، إذ سرعان ما ستكشف أية حركة خلفها.

- لقد أحسستُ سابقًا بأن أحدهم يغادر المنزل ليلًا ويبدو أن إحساسي صار أمرًا واقعًا.

علقت رشا على الأمر بقولها:

- هذه الحية تخفي شيئًا لا بد لنا من معرفته، قطَّبت حاجبيها بعد أن خطرت لها الفكرة، فقالت: ما دامت هي في الخارج لما لا ندخل إلى غرفتها.
- رغم عدم تفاؤلي فحتمًا سنتوه في فوضى ملابسها لكني سأغتنم الفرصة كما قلتِ.

كانت الغرفة كما توقعت تئنُّ بسبب الفوضى فكل شيء ملقى بشكل عشوائي، أخذت مريم تبحث بين أغراضها بصبر وتأنٍ كبيرين، شد نظرها زوجَي أحذية موضوعة تحت السرير بشكل منسق لا يتناسب مع فوضى المكان، سحبت أحدها لترى أن خلفها وُضعت حقيبة بشكل يدل على أن من وضعها يحاول إخفاءها، أسرعت بسحبها وفتحتها، وجدت بداخلها مجموعة من الملابس الخاصة بنجلاء، تحتها ظرف أبيض فتحته بسرعة لتجد أنها أوراقها الثبوتية، قالت رشا بعد رؤيتها لمحتويات الحقيبة:

- من يرى هذه الحقيبة يفكر في أن هذه الفتاة تفكر بالمغادرة لمكان ما.

زفرت مريم من الضيق وقالت:

- هذا ما يبدو عليه الأمر لكني لن أسمح بذلك، حتى لو اضطررت لإخبار سهير.

وعندما همت بالمغادرة رأت هاتف نجلاء فوق الطاولة، ابتسمت مريم بخبث وأخذته بسرعة تتفحصه ولحسن الحظ كان بدون كلمة مرور، وأيضًا من الهواتف التي تدعم خاصية تسجيل المكالمة، فعملت على تفعيل ميزة التسجيل قبل أن تغادر بسرعة.

ارتفع ضجيج وقعقشة على السلم في اتجاه السطح، فتحت مريم باب غرفتها قليلًا وحاولت استراق النظر فاصطدمت عيناها بعينَي رجل تركت السنين على وجهه خطوطًا رفيعة وتجاعيد، لكنه يبدو عظيم الهيبة، كان يحمل أكياس إسمنت ابتسم لها بعفوية وانحنى ليضع الحمل الذي بين يديه أرضًا، شهقت مريم عندما بدأ بالاقتراب فقال:

- أنتِ ابنة السيدة سعاد رحمها الله أليس كذلك؟ أومأت برأسها فتابع: «تعازيَّ الحارة لك يا ابنتي ربما أنتِ لم تتعرفي عليَّ أنا عمك حلمي البنَّاء، بيتي على بعد مترلين فقط من هذا البيت إنه المترل ذو الطلاء الأبيض، ثم ابتسم مرة أخرى وقال: كما ترين فأنا جاركم لذا إن احتجت لأي شيء لا تترددي في طلبه مني»، وعلت وجهه نظرة جادة: «أنا أعلم صعوبة العيش في

بيت به سكير منحرف كعاكف؛ لهذا لا تترددي إن واجهتك مشكلة أن تدقي باب عمك حلمي»، بعد قوله عاد لحمل الكيس من جديد واتجه إلى الدَّرج.

تأثرت مريم لقوله ووقفت للحظات تفكر في أن بعض الناس يختارون الجانب الخيِّر

من طبيعة البشر، ويرسمون الأمل حتى في قلب كقلبها الذي اختار الجانب المعتم.

اختفاء نجلاء

خلال اليومين التاليين عانت مريم من نزر الطعام إذ كانت تتسلل ليلًا لمحاولة الحصول على فتات الطعام مما زاد عن حاجتهم، وبالفعل كانت تجد القليل بما يسمح لها بالعيش وكأن الأمر مدروس بحيث تتعمد سهير تجويعها، لكن دون أن يسبب لها ذلك أذية واضحة للعيان.

كادت مريم تترك غرفتها كما هو معتاد بعد أن تنام سهير لتقصد المطبخ عندما دخل عاكف غرفتها وفي يده لفافة بها بضع سندوتشات، ابتسم لها بالابتسامة التي تكرهها وقال:

- أنا أعلم أن بطنك فارغة لذا جلبتها لك، خذيها يا مريم.

ابتعدت مريم عنه ونظرت له بتوجس؛ فقد كانت تعلم أن حضوره يعني المتاعب.

مدَّ اللفافة لها:

- لَمَ أنت خائفة أترينني بهذا السوء؟! هيا يا مريم فهي مجرد لفافة سندوتشات.

هزت كتفها متجاهلة يده وأشارت له بالخروج.

اصطنع ابتسامة وبدأ بالاقتراب فيما هي تراجعت للخلف بشكل تلقائي فتوقف في منتصف الغرفة، وقال:

- الحقيقة يا مريم يمكننا أنا وأنت أن نكوِّن صداقة رائعة، سأساعدك كما يمكنني أن أوفر لك أي شيء تطلبينه فقط مقابل رضاك.

أحست بالاشمئزاز من إيحاءاته القذرة، وقالت بصوت متشنج من الغضب:

- اخرج من هنا أنا لا أحتاج حمايتك.

شهقت وشحب وجهها عندما اقترب أكثر، وقال: لكني أحتاجك وقبل أن تستوعب قربَها منه أكثر بالقوة، قاومت تدفعه عنها وغرزت أظافرها في بشرة يده لكنه لم يبالِ، أخذت تبحث عن أي شيء تضربه به فلم تجد شيئًا، لذا أنزلت فكها إلى حيث يده وغرزت أسنانها فيها تضغط عليها بكل قوة، أخذ يصرخ بخفوت محاولًا عدم إيقاظ من بالبيت وأمسك بشعرها لإبعادها، لكنها لم تعُد تبالي حتى بالألم ولم تتركه إلا بعد أن انفجرت الدماء في فمها، أخذ يشتم ويتوعد وهي تقف ساكنة بنظرة تدعي فيها القوة، لكن ما إن

غادر حتى أسرعت تجلس على السرير وقدميها ما زالتا تصـــطكان ببعضهما من الخوف ثم ودون أن تشعر أفرغت مثانتها:

- اللعنة، لقد أفسدت ملابسي وكذلك البطانية لا أدري كيـــف حدث هذا، أقسم أني سأفعل ما في وسعي لأرسلك يا عـــاكف إلى الجحيم، رأت رشا حالتها فقالت:
- عليك تنظيف نفسك ثم البحث عن شيء لتســـتعمليه كغطـــاء سرير.
- تغيير ملابسي ليس بالمشكلة لكن من أين أحصل على غطاء.
- ربَّما من غرفة والدتك.
- لا، لقد تم إزالة كل شيء.
- فكرت لبرهة ثم قالت ربما من القبو أنا لم أدخله من قبل، لكـــن أعلم أنهم يضعون كل ما لا يستعملونه هناك، ربما أجـــد شـــيئًا أستخدمه.

تسللت مرة أخرى وهي ترتجف من فكرة مقابلة عاكف بـــالطريق وبسرعة نجحت في بلوغ القبو، فتحت الباب وبدأت يدها تتحسس الحائط إلى أن وجدت قابس النور، أنارته ونزلت الـــدرج لتتفاجـــأ بفوضى رهيبة وبرائحة عفونة تكاد تزكم الأنف، فضَّلت عدم إطالة البقاء، تطلعت حولها تبحث بســـرعة إلى أن رأت بطانيـــة قديمـــة

موضوعة فوق خزانة حديدية حاولت الوصول إليها فلم تستطع، فاستعانت ببرميل حديدي كبير كان مركونًا في الزاوية ولحسن حظها كان فارغًا ممَّا سهَّل عليها نقله إلى حيث تريد والصعود فوقه، أخذت البطانية المشبعة بالغبار وقررت العودة لغرفتها وتنظيفها هناك، حيث ستكون بأمان أكبر، بعد تنظيف مقبول تركت البطانية على حافة النافذة حتى تخف رائحة الرطوبة، ثم استغرقت في نوم عميق فوق السرير الخشن.

بعد محاولة الاعتداء التي تعرضت لها مريم قررت مواجهتهم لكبح كل محاولة تطاول قادمة، لذا قررت أولًا مواجهة سهير فلن تسمح لها بمتابعة سياسة تجويعها، وفكرت في استغلال وجود السيد حلمي الذي سيوفر لها درع حماية ما دامت سهير تحب دومًا المحافظة على صورة المرأة المحترمة في عيون جيرانها.

نزلت السلم واتجهت إلى المطبخ حيث قررت تحضير فطور جيد بشكل علني، فأعدت إبريق الشاي كما قامت بقلي بيضتين بدأت بالتهام فطورها ببطء وهي تتساءل كيف لم تظهر نجلاء إلى الآن فغرفتها قرب المطبخ وكانت ستعلم بما يحدث فيه، أسرعت مريم بإتمام فطورها وقررت زيارة غرفة نجلاء فتحت الباب ببطء بعد أن تنصتت على الغرفة لما يقرب من عشر دقائق، ولم تسمع أي مؤشر

يدل على وجود أحد، عندما دلفت إليها وجدتها فارغة، فهوى قلبها من مكانه، أسرعت إلى السرير تبحث تحته عن الحقيبة عندما وجدتها مكانها تنفست الصعداء، أرسلت عينيها إلى الطاولة حيث كان الهاتف في مكانه أخذته بسرعة وبدأت تتفحصه لتجد مكالمتين مسجلتين، الأولى لم تعرها اهتماماً فقد كانت مكالمة عواطف غبية، أمَّا المكالمة الثانية توقف الزمن وهي تستمع لفحواها، انضمت لها رشا بعد أن أحست بقلقها:

- لا بد أنها مكالمة مهمة شغلي مكبر الصوت ودعيني أسمع:

وانساب الصوت:

- نجلاء عليك حزم أمرك فوراً فالشخص الذي سيخرجنا خارج الحدود سيتم نقله بعد غد إلى منطقة أخرى، أنا أطلب منك المغادرة من مدة وأنت تماطلين.
- أنا أحاول بكل جهدي استطعت الحصول على المدخرات، لكني أريد أيضًا مجوهرات أمي لا أعرف أين وضعتها، عليك الصبر يا صادق فأنا أفعل ما بوسعي ولا تنسَ أن البداية الجديدة تحتاج إلى مبلغ محترم لتكون مريحة خاصة في بلاد غريبة.
- أنا أفهمك يا نجلاء، لكن ذاك الشخص هو فرصتنا الوحيدة لذا علينا المغادرة اليوم سأنتظرك عند السادسة لا تتأخري.

أطرقت مريم رأسها وجلست تفتـــرش الأرض، ارتجفـــت جفونهـــا السوداء ودون سابق إنذار قفزت في اتجاه الحقيبة التي أعادتها منـــذ برهة تحت السرير، فتحتها وبدأت تقلب محتوياتها بسرعة، وجـــدت الظرف الأبيض فتحته وأخرجت أوراق نجلاء الثبوتية وضعتها قربها على الأرض، ثم عادت تبحث عن المال، قلبت الملابس وبحثـــت إلى أن انتبهت لوجود جيب داخلي فتحته، وأدخلت يـــدها لتســـحب المال الذي كان محشواً داخله ثم عملت على إعادة المحتويات كمـــا كانت سابقًا، وأغلقت الحقيبة وأعادت وضعها تحت السرير وحملت المال والأوراق واتجهت إلى غرفتها وهناك فتحت نافذتها تنتظر عودة نجلاء.

رأت مريم من النافذة عاكفًا يبتعد بخطى غير متوازنة والواضح أنه ما زال تحت تأثير الخمر، رفع يده ليفرك وجهـــه في محاولـــة فاشـــلة لاستعادة التركيز، فرأت مريم يده يلفها الضماد اجتاحتها رعشـــة باردة، واستحضر عقلها الواقعة كما لو أنها تعيشها مـــن جديـــد، بسرعة أبعدت الذكرى ثم رأت نجلاء قادمة مـــن بعيـــد ابتعـــدت واتجهت إلى خارج غرفتها؛ فقد قررت انتظـــار اللحظـــة المناســـبة لمواجهة نجلاء.

* * *

أسرعت نجلاء إلى غرفتها فقد كان عليها ترتيب مشترياتها بسرعة في الحقيبة ومغادرة المنزل قبل عودة أمها من جلسة المحكمة؛ لأنها لن تستطع مواجهتها كما لا تريد أن تزيد من إحساس الذنب الذي يتآكلها، توقفت يدا نجلاء عن ترتيب البقية بعد أن شعرت بأن هناك شيئًا مختلفًا، وكأن أحدهم عبث بالمحتويات بحثت قليلًا واستغرق منها الأمر أقل من دقيقة لتنتبه إلى الظرف الفارغ، أمسكته بيدين مرتعشتين فتحته لتجده فارغًا، اجتاحها خوف كبير فتسارعت أنفاسها وهي تواصل البحث بين أغراضها بعد أن فكرت في إمكانية انزلاق الأوراق بين الثياب، ازدادت ضربات قلبها وهي تُدخِل يدها في جيب الحقيبة وتسحبها فارغة، جُنَّ جنونها وأسرعت اتجاه غرفة والدتها، قطعت السُّلم بسرعة ودلفت إلى الغرفة فلم تجد أحدًا، لم تتوقف لتفكر كثيرًا بل باشرت البحث بالدولاب، ولم تهتم للفوضى التي أحدثتها فأخذت ترمي كل شيء للأرض.

بعد أن سمعت الجلبة ورأت تسارع تنفس نجلاء من الغضب قررت مريم أنها اللحظة المناسبة، فمع حالة نجلاء يمكن بقليل من الضغط أن تخرج بشيء منها، وقفت للحظات ساكنة عند الباب وبصوت بارد وثبات انفعالي قالت:

- أتبحثين عن هذه؟ وأشارت للأوراق الثبوتية التي بين يديها.

اتسعت عينا نجلاء وهي ترى ضالتها بين يدي مـــريم، وابـــيضَّ فمها من قوة إطباق شفتيها، وقالت بصوت كالفحيح:

- كيف حصلت عليها؟ هل فتشت حقيبتي؟ وهمّـــت بـــالاقتراب لتنتزعها من يدي مريم، وبسرعة أخرجت من جيبها الولاعـــة وقالت:

- إياك والاقتراب أو سأحرقها، قفي مكانك واستمعي لما أقـــول ولك حرية الاختيار.

أومأت نجلاء برأسها ووقفت مكانها، فيما استرسلت مريم:

- ستأخذينها وسأدعك تغادرين لو أجبت على ســـؤال واحـــد، كيف قتلتم أمي؟ كيف نفذتم مخططتكم ليبدو الأمـــر كوفـــاة طبيعية؟

ارتفع حاجبا نجلاء دهشة، لكن سرعان ما تمالكت نفسها وقالت:

- ما زلت في ضلالك القديم، لِمَ لا تفهمين أن أمك ماتت كمـــا يموت الجميع؟ لَمَ تصرين على أننا فعلنا لها شيئًا؟

ابتسمت مريم بأسى:

- ما زلت لا تعلمين أهمية ما أعرض عليك وتضـــعين كـــل مـــا خططت له في مهب الريح، لذا فكري قبل أن تقولي كلمتـــك

التالية فهي فرصتك الوحيدة لتعيشي حياتك الجديدة مع صادق في البلاد التي قررتم الهجرة إليها، لا تنسي أنه بقي لـــك فقـــط بضع سويعات قبل حلول الساعة السادسة حيث ينتظرك.

سقطت شفة نجلاء ذهولًا وهي تستمع لمريم، ثم قالت بنفس متقطع:

- كيف علمت كل هذا؟
- لا أظن أن الأمر مهم جدًّا لكن بتّ الآن تعلمـــين أني لســـت بالغباء الذي تتصورينه لذا أجيبيـــني وغـــادري، رأت ملامـــح الرفض تعلو وجه نجلاء فأسرعت بالقول: وإن لم تفعلي أقســـم أن أحرقها رفقة المال.

أطرقت نجلاء رأسها للحظات تفكر، ثم رفعت بصرها إلى يد مـــريم التي جهزت الولاعة ومدت الأوراق إلى الأمام، وبشـــكل مفـــاجئ أمسكت الكرسي ورمته في اتجاه يدها.

تلقت مريم الضربة القوية على ساعدها، لكنها تمسكت بـــالأوراق الثبوتية ولم تفلتها، وعندما رأت نجلاء تسرع في اتجاهها غادرت في اتجاه الدَّرج تقطعه بسرعة للوصول إلى المطبخ، فقد قررت حـــرق بعض المال لإظهار جديتها في تنفيذ ما هددت به.

علمت نجلاء من نظرات مريم وهي تسرع إلى الدَّرج أنها قررت بالفعل القيام بأمر مجنون، فأسرعت بكل ما أوتيت من قوة لتلحق بها، جاهدت لتضاعف سرعتها واستطاعت تقليص المسافة، لكنها فقدت توازنها ونظرًا لقوة اندفاعها هوت في اتجاه أسفل السُّلم ورأسها للأمام ليرتطم بالأرض، وتصدر رقبتها صوت فرقعة وتميل في اتجاه اليمين، لم تكترث مريم وتابعت مسرعة إلى المطبخ، أشعلت الفرن وأحرقت نصف المبلغ الذي بين يديها، التفتت للمرة الثانية إلى مكان نجلاء واستغربت أنها لم تنهض حتى بعد فعلتها، اقتربت منها متوجسة من أنها تحاول التلاعب بها وأمسكت يدها، لكنها سقطت خائرة، أسرعت تبحث في معصميها ثم بعده في رقبتها عن نبض لكن لا شيء، ابيضَّ وجه مريم، وشعرت بداخلها يهوي جالت ببصرها لا تعرف ما العمل، نظرت لجسد نجلاء لفترة ثم قررت سحبها إلى الحمام بعد أن فكرت أنها فقط أُغمي عليها، وستقوم بغسل وجهها ورش جسدها بالماء.

استطاعت بعد جهد سحبها إلى الحمام فقد كانت تعاني هي أيضًا من ألم في ساعدها من جراء الضربة التي تلقتها بالكرسي، أخذت شطاف الحمام وتركت الماء ينساب على نجلاء لفترة لكن لم تبدر عنها أي رد فعل:

- توقفي يا مريم ألا ترين أنها ميتة.

وقفت مريم مكانها جامدة جمود الدمية في علبتها، أخذ جبينها يتصبب عرقًا فقد جاء تصريح رشا مماثلًا لما كان عقلها يحاول إيصاله لها، مدت يدها لتسند جسدها إلى الجدار، لكن فاجأها الغثيان فأسرعت إلى الحوض وأفرغت محتويات معدتها، ثم عادت للجلوس أرضًا وبكت ما شاء الله أن تفعل، بعد فترة طويلة استجمعت شتات نفسها من جديد وأطرقت تفكر في المصيبة التي حلت عليها، نظرت في اتجاه جسد نجلاء ثم قالت:

- ظننت أن الأمر سيكون سهلًا، لكنه صعب جدًّا، تابعت مريم قولها وهي تنظر للجسد مرة أخرى: أنا كنت سأعاقبها، لا أدري نوع العقاب، لكنه ربما قريب من هذا.
- إذن لا مشكلة لقد تدخلت العدالة الإلهية لإحلال الحق.
- أجل هو ذاك، لكن الآن وجود هذه الجثة سيصعِّب أمر متابعة لخطتي وربما تكون سببًا في إنهائها، عاد بصرها مرة أخرى للجثة ثم بعد ذلك لساعة يدها، كانت تعلم أن الوقت يداهمها، ارتعدت فرائسها عندما فكرت أن سهير يمكن أن تعود في أية لحظة، أغمضت عينيها قليلًا وغاصت في تفكير عميق:
- مريم لم يعد لدينا وقت للتصرف بالجسد.

- أجل أعلم يا رشا لذا عليَّ إخفاؤه إلى أن أجد حلًّا، أرى أولًا أن أسحبه إلى القبو فنادرًا ما يقصدونه وأخفيه هناك حاليًا، فحوَّلت قولها لفعل.

كان سحب جسد نجلاء أمرًا صعبًا جدًّا خاصة مع وجود السلم المؤدي للقبو كما أن الجسد نفسه أصبح ثقيلًا أو هكذا شعرت مريم، بعد وصولها إلى أسفل الدَّرج اختارت وضعه في الزاوية البعيدة قرب أكوام الملابس الموضوعة عشوائيًا، وقامت بلفِّه بالغطاء بشكل يطمس حدوده، بعد أن اطمأنت أنه مغطى بالكامل أسرعت بالعودة إلى غرفة نجلاء؛ فقد كان عليها إخفاء حقيبة ملابسها، لكن قبل حملها ارتدت قفازات قطنية وجدتها مع الثياب، ثم حملت الحقيبة التي قررت وضعها خلف الخزانة الصدئة في الفراغ القائم بينها وبين الحائط بحيث يصعب الوصول إليها، بعد أن انتهت اتجهت رأسًا إلى المطبخ فأتلفت الأوراق الثبوتية وقامت بإحراق المال، ولم تحتفظ منه إلا بالقليل لتستعمله في حالة الطوارئ وأحرقت أيضًا القفازات، بيد مرتجفة سحبت الكرسي لتجلس ثم ضمَّت يديها لتوقف رعشتهما، حاولت التنفس ببطء للسيطرة على الخوف، لكنها قفزت من مكانها عندما تذكرت الهاتف فأسرعت مرة أخرى للغرفة واتجهت إلى الطاولة حيث تركته، أمسكته وطرقت مفكرة فقالت رشا التي عادت من جديد لتفقد الأوضاع:

- لِمَ لا تحطمينه يا مريم وعندما يحاولون الاتصال يجدونه مغلقًا؟

بقيت مريم صامتة وتنهدت بعمق:

- لا لن أفعل، فهو عامل مساعد سيقنعهم بهربها بشكل لن يجعل هناك مجالًا للشك، عليَّ أن أغلقه وأخفيه، لأمنح نفسي فترة زمنية كافية للتصرف بالجثة، برز ذقنها وحدقت للأمام كأنها تقرأ مستقبلًا تراه، يجب أن يتم الأمر في التراتبية التالية: عليهم أولًا أن يتساءلوا عن سبب غيابها، ثم بعد ذلك سيفتشون بين أغراضها لعلهم يهتدون لشيء ما وسيلاحظون غياب الملابس، وكذا الأوراق الثبوتية وبسرعة سينصرفون للبحث خارج المنزل، وهو كل ما احتاجه لإيجاد حل، وبعد أن أفعل سأضع الهاتف أمامهم في مكان ما ليمنحهم الإجابة التي أريدها.
- يا إلهي أنتِ بارعة!

زفرت بضيق:

- ليس بالشكل الكافي فقد وضعت لنفسي الآن الساعة الرملية وصرت معلقة بجزأيها، رأت عدم الفهم واضحًا في وجه رشا فاستأنفت موضحة: لقد حصرت نفسي في مدة زمنية محددة؛ إذ عليَّ الآن الإسراع وكشف الحقيقة قبل أن يتنبه أحدهم لما حدث هنا، كما أن جسد نجلاء له مدة محددة قبل أن يبدأ

بالتحلل وتنتشر الرائحة التي ستدل على مكانه، وكما تـــرين عليَّ التحرك بين هذه اللحظة وفترة بداية التحلل، أنا الآن بين المطرقة والسندان.

- ولِمَ لا نبعد جسدها لمكان خارج البيت لنضعه في مكـــان نـــاءٍ وهكذا يسقط مشكل الوقت المحدد.
- وكيف سأبعده وأنا لم أستطع تحريكه لما بين الحمام والقبو كـــان الأمر صعبًا فكيف بمكان بعيد؟! لو افترضنا أنني استطعت تدبر أمره، كيف سأخرجه دون أن أثير الشك؟! لا تنسي أننا في حي شعبي أزقته حية، كما أن أعين شامة لا تعرف التعب وعنـــدما تُثار مسألة اختفاء نجلاء ستربط الـــنقط ببعضـــها، وتعلـــم أن الحمولة التي أخرجتها مثيرة للشك، لا.. الأفضل تركـــه هنـــا بالمنزل.

البحث عن المختفية

عادت سهير محملة بأكياس عِدة وعلامات السعادة واضحة على محيَّاها، تفاجأت وهي تدخل المنزل بمريم على السُّلم تقتلع رجليها اقتلاعًا فعملت على تجاهلها، واتجهت إلى المطبخ لتضع مقتنياتها في الثلاجة، بعد لحظات صدرت عنها صرخة غضب من حالة الفوضى في المطبخ وبدأت تنادي نجلاء بتذمر، عندما سمعت مريم نداءها ابيضَّ وجهها وأسرعت إلى غرفتها تحتمي بها قبل أن يثير ارتجافها الريبة، تابعت سهير نداءها ودعمته بالتقدم لغرفة نجلاء فوجدتها فارغة، أخذت تشتم وأمسكت بالهاتف لتتصل برقمها وعندما وجدته مغلقًا بدأت من جديد تلعن وتتوعد، بعد لحظات أمسكت لسانها عن السباب، تنهدت بقليل من العمق وذكرت نفسها أنها ستعاقب نجلاء، لكنها الآن أبدًا لن تفسد سعادتها فبعد أسابيع فقط ستعيش حياتها كما كانت تتمنى، استرجعت ذاكرتها جلسة المحكمة وابتسمت، فرغم أنها الجلسة الأولى إلَّا أن القاضي أبدى تجاوبًا إيجابيًا مع الملف، وحتمًا ستكون الوصاية من نصيبها، حسنًا ستكون هناك رقابة قضائية لمراقبة قراراتها، لكنها أبدًا لن تبالي وستنتهي من كل شيء قبل أن تقدم تلك التقارير الدورية التي سيفرضها

القاضي، ابتسمت مرة أخرى وذهنها يستعرض خطتها ببيع كل شيء، حتى هذا المنزل المهترئ الذي تقيم فيه وستغادر لوجهة مجهولة رفقة ابنتها، أما عاكف فقد صبرت عليه بما فيه الكفاية وعليها التخلي عنه إن كانت تريد حياة مريحة، وثب جسد سهير من صوت عاكف المفاجئ:

- ألم يجهز طعام الغداء بعد؟! تعلمين أن السيد حلمي ينتظر بالسطح وقد تجاوزت الساعة وقت الغداء بكثير.
- لن تتغير أبدًا يا عاكف لِمَ لَمْ تصدر صوتًا، لقد كاد قلبي أن يتوقف.
- ربما لأن عقلك كان في مكان مغاير غير المطبخ.
- أجل كان يفكر في العقاب المناسب الذي سأجهزه للغبية نجلاء، انظر لحال المطبخ هي لم تقم بأي شيء طيلة غيابي بالمحكمة، الحقيقة يا عاكف بتُّ أتوجس من غيابها المتكرر، عليك التحدث إليها بصرامة لمعرفة ما تفعله.

لكن مدة الغياب امتدت لساعات فسيطرت حالة القلق والتوتر على سهير وعادت لتفتيش غرفة ابنتها للمرة الثالثة، جالت بالبيت بصورة خاطفة وبعد أن كلمت صديقتيها المقربتين اللتين نفتا رؤيتهما لنجلاء، دب الرعب في قلبها واتصلت للمرة المئة لتجد

هاتفها على وضعيته السابقة، تسارعت أنفاسها فجلست فيما كان عقلها يستحضر كل الاحتمالات الممكنة لغيابها، وعندما لم تعد تستطيع الانتظار أكثر اتصلت بعاكف، الذي خرج من مدة طويلة للبحث عن نجلاء في الحي وأخبرته عن مكان محدد ليلتقيا فيه، ويقوما بالبحث معًا قبل التوجه للشرطة.

جلست مريم في أعلى السلم تتابع ما يحدث برعب يزداد حدة كلما اقترب أحدهم من باب القبو، وبعد كل هذه الفترة من الانتظار شعرت بالراحة وهي ترى سهير تتجه للخارج بعد توديع السيد حلمي الذي غادر بعد انتهاء يوم متعب من العمل، فحاولت مريم استجماع شتات نفسها والتجلد لأن اللحظة التي تنتظرها قد حانت.

بعد أن تأكدت من مغادرة سهير، أسرعت إلى القبو نزلت درجاته واتجهت حيث يوجد جسد نجلاء وبيدين مرتجفتين كشفت غطاءه، انتابتها رعشة وهي ترى الشحوب الشديد الذي اعترى جلده، فحاولت إيهام نفسها بأنها ما زالت حية وعادت تبحث في نقاط النبض، لكن ملمس جلدها البارد قطع كل أمل للحياة ساور مريم، فوقفت جامدة دون حراك، تخطت حالة الانقطاع المؤقت للأفكار وبادرت بسحب نجلاء إلى حيث يوجد البرميل الحديدي الكبير،

وبعد أن تمكنت من ذلك فتحت غطاءه، وبكل قوتها حاولت حمل نجلاء ففشلت وأعادت الكرَّة حتى كادت تستسلم، لكنها فكرت في أن الوقت يداهمها فركزت تفكيرها وقوتها وبجهد كبير حملتها أخيرًا ووضعتها وسط البرميل، ثم أسرعت تقطع الدَّرج إلى السطح حيث توجد أكياس الإسمنت، أحضرت منها ما يكفي إلى القبو وقامت بخلط كمية كبيرة منها بالماء، وصبتها فوق الجسد ثم أعادت الكرَّة إلى أن تمت تغطيته بالإسمنت، ولم تكتفي بذلك بل أضافت كمية وافرة حتى صار البرميل معبأ ثم أغلقته.

تشنجت مريم عندما باغتتها رشا بقولها:

- هل سيمنع الإسمنت خروج الرائحة الكريهة بعد التحلل؟
- لا أظن!! لكن أعلم أنه سيؤخرها... لوقت ما، أتمنى أن يطول....
- لَمَ تتلعثمين هكذا يا مريم؟! هل بسبب الخوف.
- ربما.... أشعر أن أعصابي صارت منهارة... فهي حادثة ما كان عليها أن تقع في هذا التوقيت.
- أظن معك حق، لكن الأمر صار واقعًا وما علينا سوى التصرف وفقه، سكتت للحظة وتابعت: وماذا عن أكياس الإسمنت ماذا ستفعلين عندما ينتبهون لاختفائها.

- أظن أن انشغالهم بغياب نجلاء سيمنع التفكير في غيرها، ولن يعيروا الأمر أهمية، لكن لمزيد من الحيطة سأضع هاتف نجلاء في مكان ما لتستطيع سهير إيجاده بسهولة، أظنها ستنتبه بسرعة إلى وجود مكالمات مسجلة فهي داهية عكس نجلاء التي أعمى الحب بصيرتها فلم تنتبه أني أسجل مكالماتها، وعندما تفعل سهير ستعلم بهربها وستكفُّ عن البحث عنها، والأهم أنها ستوقف حالًا الأشغال بالسطح عندما تعلم أيضًا باختفاء المال الذي كانت ستستعمله لأداء أجرة السيد حلمي، وهكذا لا أحد سينتبه للإسمنت.

جالت بطرفها في الفوضى التي خلَّفتها عملية خلط الإسمنت فأسرعت بتنظيف المكان من أي أثر يمكن أن يشير إلى ما حدث هنا، وبعد فترة طويلة غادرت بخطىً بطيئة إلى غرفتها حيث افترشت الأرض.

بدأت تحس بألم غير محدد وعلت عينيها غشاوة قاتمة، وبدأت تنسحب من الواقع شيئًا فشيئًا إلى مكان أبدًا لم تكن تحبه، إلى مكان تسوده الضلال والتي بدأت تغزو الغرفة، وكلما زاد عددها ازدادت الأصوات الصادرة عنها حتى باتت لا تستطيع احتمال الضجيج، أغلقت أذنيها لتخفيف حدة الصراخ، لكن دون جدوى

فهو صادر من مكان ما بعقلها، قاومت لدقائق، لكن سرعان ما خارت قواها وفقدت الوعي.

دغدغت يد لطيفة مريم فأبعدتها ظنًّا منها أنه حلم، لكن عادت اليد تدغدغها من جديد وسمعت صوت يناديها:

- استيقظي يا مريم هيا يا صغيرتي.

تنبهت كل حواسها وقفزت بسرعة لتجد شامة جارتهم العجوز تحاول إيقاظها، ارتعشت يدها عندما تذكرت أحداث البارحة، لكنها حاولت التماسك ونظرت لشامة بنظرة تساؤل وخوف، أسرعت شامة قائلة:

- لا تخافي يا مريم فقد جئت للاطمئنان عليك فحسْب بعد أن لاحظت غيابك بالأسفل، حمدًا لله أنك بخير، ابتسمت مريم لها لتشجيعها على متابعة الحديث، فهي تعلم أنها امرأة مهذارة ومع قليل من التشجيع تستطيع معرفة كل ما حدث في الساعات الماضية، تابعت المرأة مبتلعة الطعم: «لقد كانت ليلة قاسية على الجميع فأغلب أهل الحي قضَوا ليلة بيضاء في البحث عن نجلاء، بعد أن تقاعست الشرطة عن ذلك؛ بحجة أن على عائلتها انتظار أربع وعشرين ساعة قبل تقديم بلاغ الاختفاء، الآن عاد الأهالي للراحة ثم متابعة البحث عند العاشرة صباحًا، أما عاكف

المسكين فقد قصد المشرحة، سكتت قليلًا ثم تابعت بعد أن لاحظت شحوب مريم: «كيف حالك يا ابنتي لا بد أنك أيضًا عانيت بسبب الحادثة لكن لا تقلقي سنبذل جهدًا مضاعفًا لإيجادها».

ابتسمت مريم لها ببراءة وفكرت في أن الوقت مناسب لزرع بعض الشك، والعمل على جعل مسار البحث ينحرف إلى حيث تريد، فرقت عيناها وأمسكت بيد العجوز وقالت بصوت متهدج:

- أظن يا خالتي أننا لو سألنا صادق سنوفر الكثير من الجهد فقد يعلم شيئًا؟
- صادق؟! من هو؟

ادَّعت مريم الارتباك ونظرت للأرض، لكن العجوز شامة تابعت بالحاف:

- هيا أخبريني يا مريم فقد تكون نجلاء في خطر، عليك قول كل شيء لكي نتمكن من مساعدتها.

نظرت مريم لشامة بتردد وتنهدت بعمق:

- خالتي لن تحب سماع هذا خاصة إن كنت أنا مصدره، ستغضب وقد تعاقبني لذا يا خالتي دعيني صامتة.

- أقسم يا مريم أنها لن تعلم أنك مصدر الخبر، كوني مطمئنة!

ابتسمت مريم بشكل خجل ونظرت مباشرة في عيني العجوز وقالت:

- صادق.. إنه الشخص الذي كانت نجلاء تحدثه يوميًا وتخرج دومًا لملاقاته، الحقيقة أنا رأيتها أكثر من مرة تخرج متسللة في الليل، كما رأيتهما معًا عندما كنت في طريقي للمقبرة.

توترت شامة بعد قول مريم وصمتت للحظات ثم قالت لمريم:

- لا بأس يا مريم أنت لم تقولي شيئًا وأنا سأجد طريقة لأفاتح سهير، أظن أن عليك الآن الالتحاق بخالتك في الدور السفلي فهي في حاجة ماسَّة لك، هي لم تحتمل الصدمة وقد انهارت وكدنا ننقلها للمستشفى، لكنها رفضت وفضلت العودة للمنزل.

أذعنت مريم لقول شامة وارتسمت على وجهها علامات القلق من رؤية خالتها، عندما رأتها شامة ظنت أنها متعاطفة مع سهير فأسرعت لمعانقتها.

عندما وصلتا للردهة طالعها منظر سهير المكتئب بدوائر سوداء تلف عينيها وبكتفين منحنيين للأسفل، اقتربت منها مريم وحاولت أن تحدثتها بصوت أجش يحمل التعاطف:

- سلامتك يا خالتي وسلامة نجلاء.

نظرت لها سهير وكأنها تراها لأول مرة أو أنها نسيت أمرها بالمرة، طال أمد نظرتها وبدا يعود البريق لعينيها، فأخذت ترمقها بنظرات تتغير مع كل استغراق فكري، ارتعبت مريم واجتاحها خوف كبير فهي تعلم أن خالتها داهية حتمًا ستتوصل إلى أن نجلاء لم تغادر البيت وتبدأ ببحث دقيق وقطعًا سيكون القبو أول مكان تبدأ منه، نظرت مريم إلى العجوز شامة بإلحاح وهي تدعو في خلدها أن تبدأ بالحديث عما أخبرتها سالفًا لتغير مسار تفكير سهير، لكن المرأة لم تحرك ساكنًا واختارت الصمت، ففكرت مريم أن عليها التصرف سريعًا فلم يكن أمامها سوى استعمال دليل الهاتف، وعندما قررت التحدث بادرتها سهير:

- متى كانت آخر مرة رأيت نجلاء فيها؟!

استرخت عضلات وجهها المتوترة فجواب هذا السؤال سيبعد سهير عن المسار الذي سارت فيه أفكارها:

انتظرت مريم لفترة كأنها تحاول التذكر:

- أظن أني رأيتها صباحًا، ثم تابعت وهي تنظر مباشرة في عيني سهير لتشعرها أنها مغلوبة على أمرها: «كنت سأنزل إلى المطبخ بعد أن استبدَّ بي الجوع وعندما فتحت باب الغرفة رأيتها تخرج من غرفتك أظن أنها كانت برفقتك».

هزت سهير رأسها في ارتباك وبدأ وجهها يشحب من جديد، ابتسمت مريم سرًّا فقد زرعت الآن في نفس سهير زوبعة صغيرة، سرعان ما ستتحول إلى عاصفة بعدما تجد الهاتف الذي وضعته في غرفتها بشكل يبدو أنه انزلق من نجلاء، تنهدت مريم بعمق وهي ترى خالتها تحاول التماسك فقررت مراقبتها بشكل شديد؛ فتظاهرها بالتماسك تحته خوف كبير سرعان ما سيتغلب عليها وستستأذن لتغادر إلى غرفتها.

وكما كان متوقع استأذنت سهير من شامة وادَّعت أنها مريضة وتحتاج للراحة لذا ستقصد غرفتها، فغادرت المرأة إلى منزلها واعدة إيَّاها بزيارتها لاحقًا، بعد مغادرة شامة أسرعت سهير تقطع الدَّرج بسرعة ودخلت غرفتها كالمجنونة فتبعتها مريم بخفة، واقتربت من الباب المفتوح الذي نسيت سهير إغلاقه، فرأتها تحاول فتح سحاب وسادتها بتوتر بالغ، ثم أدخلت يدها تبحث فلم تجد ضالتها وبجنون

أفرغت حشو الوسادة كله ليسقط إلى جانب الصوف لفافة بلاستيكية صغيرة أصدرت عند ارتطامها بالأرض صوتًا وكأن بداخلها جسمًا بلاستيكيًّا، أمسكت سهير رأسها بعد أن تأكدت من ضياع المال ثم بدأت بالصراخ والوعيد لفترة تلتها فترة صمت مفاجئة، فزعت مريم من أنها كشفت وجودها قرب الباب، لكن سرعان ما انساب صوت علمت من خلال الإنصات له أن خالتها وجدت الهاتف، وأنها بدأت بالاستماع لمحتوى المكالمة، لكن تنبهت أيضًا إلى صوت أقدام تصعد السلم فأسرعت لغرفتها تنظر من خلف الباب، وعندما تأكدت من دخول عاكف للغرفة عادت لموقعها من جديد.

عندما ولج عاكف الغرفة وجد سهير صامتة تنظر في الفراغ بعيني استحالتا حممًا، قطَّبت حاجبيها عندما رأته ورمته بنظرة شزرًا ومدت إليه بالهاتف وهي تقول:

- هذا هو المتوقع من ابنة سكير ثمل، ثم أسرعت تبحث عن مجوهراتها لترى إن كانت لجلاء أخذتها بالفعل.

أخذ عاكف الهاتف وعلى وجهه علامات الغضب من قولها، لكنه سرعان ما حوَّل اهتمامه وبدأ يستمع للمحادثة ووجهه يتحول للون القاني، قطع صوت سهير الغاضب تركيزه فرفع بصره:

- تلك الحقيرة أخذت كل شيء حتى السلسال الوحيد الذي أملك، نظرت إليه وأضافت: «ولم توفر أيضًا خاتم زواجنا واسترسلت بحقد: وأنا التي كدت أموت قلقًا عليها في الوقت الذي كانت تهرب بكل ما أملك».
- توقفي عن الصراخ يا سهير، إنهما مجرد سلسال وخاتم لا تساوي قيمتهما كل هذا الغضب، ألم تفكري في شرفي وأنها غادرت مع رجل.
- عليك اللعنة يا عاكف وعلى شرفك، ابنتك سرقت مالي، سرقت ثلاثين ألف درهم كاملة إضافة إلى خاتمك الحقير.

استشاط غضبًا وأمسك بيدها:

- أكنتِ تملكين كل ذاك المال وتركتني أتوسل للدائنين الذين استغلوا وضعي وضاعفوا الفائدة.

نزعت سهير يدها من قبضته:

- لقد منحتك المال في المرة الأولى، لكنك صرفته على المشروب وتركت الدين، فلا تتوقع أن أدفع مقابل نزواتك في كل مرة.
- ماذا تعنين؟! لا تنسي أن ذلك المال أنا أستحقه بعد كل ما فعلت.

فقالت باستهزاء:

- أنا لن أدفع نظير خدمتك تلك طوال حياتي.

رأى التصميم في قولها فاندفع يمسك معصمها يحاول سحقه.

- لا تفكري أبدًا في التخلص مني، لمصلحتك لا تفعلي أو سأنشر الغسيل الوسخ

على الملأ، انتزعت يدها من قبضته وقالت ببرود كبير:

- أقسم أن تلك الإبرة كان عليَّ غرسها في ظهرك أنت أيضًا لينتهي عذابي.

تقدم منها بقبضتين مشدودتين فيما هي تراجعت إلى الخلف بشكل تلقائي، توقف قريبًا منها وفمه مشدود من الغضب، لكن سهير رفعت بصرها إليه وتابعت بنفس البرود:

- لا تهدر طاقتك عليَّ، احتفظ بها للبحث عن مبرر لائق لأفعال ابنتك أمام سكان الحي الذين سرعان ما سيبدؤون بالتوافد إلى هنا لمتابعة البحث.

هز كتفيه متجاهلًا وكأن لا صلة له بالأمر واتجه للباب مغادرًا، فأضافت بتهكم: «لَمْ لَمْ يفاجئني تصرفك؟! ربما لأنه الأمر الوحيد الذي تجيد فعله، الهرب من كل مسؤولية مهما كانت صغيرة أو كبيرة»، صمتت بعد مغادرته بالفعل، وأخذت تفكر في مبرر تقدمه

لشامة لإيقاف البحث، على أن يكون مبرراً يحمي وجه العائلة وشرفها، وشامة بالطبع ستتكفل بنشره بين الأهالي، بعد تفكير طويل لم تجد غير مبرر مؤقت تدَّعي فيه أن نجلاء سافرت لقضاء بعض الوقت عند صديقة لها بعد مشاجرة كبيرة مع والدها، فغادرت إلى أن ترتاح أعصابها ثم تعود، أحسَّت بارتياح للفكرة وهمَّت بالمغادرة إلى منزل شامة، لكنها توقفت عندما تذكرت فجأة أن عليها التحدث أيضاً إلى السيد حلمي لإيقاف أشغال السطح، وستتحجج بالظرف الطارئ الذي ألَّم بالعائلة رغم أنها لا تعرف كيف ستؤدي نظير خدماته في الأيام السابقة، أخذت تقطع الغرفة بتوتر كبير فحماقة نجلاء وهربها بالمال وضعها في موقف محرج، ازداد غضب سهير وهي تتذكر صوت ابنتها الفرح وهي تخطط لبداية حياة جديدة، فانفجرت مرة أخرى بالتهديد والوعيد.

تفاصيل الجريمة

عادت مريم إلى غرفتها بحدقتين متسعتين وارتخاء واضح في فكها السفلي نتيجة ما سمعته، حاولت التوازن فلم تستطع، فجلست بسرعة قبل أن تسقط فكأنما رجليها تحولتا لهلام، بعد مدة سيطرت بجهد على توترها والتفتت إلى رشا التي ظهر عليها علامات الخوف وهي ترى حالة مريم:

- أظنك سمعت ما قالته أنت أيضًا، لقد قالت: «كان عليها غرز الإبرة في ظهره أيضًا» هل معنى هذا أنها فعلت ذلك من قبل؟ أيعقل أنها فعلت ذلك بأمي؟! وهل يمكن لإبرة أن تقتل أحدًا؟!

لم تتلقَّ جوابًا من رشا التي فضلت الصمت، فتابعت:

- عليَّ معرفة الأجوبة على أسئلتي ولا أظن أني سأتوصل لشيء من سهير أو عاكف لذا أرى أن أتوجه غدًا لاستشارة طبيب مختص في الجهاز التنفسي، سأسرد عليه الأعراض التي ظهرت على أمي وأرى تشخيصه، الحقيقة إن هذه الفكرة خطرت ببالي من مدة طويلة، لكني لم أكن أملك المال أما الآن فسأستعمل ذلك المبلغ الذي احتفظت به، لا يجب أن أضيع مزيدًا من الوقت ففي أية لحظة ستنبعث الرائحة من القبو، لكن هناك

مشكلة فأنا أبدًا لا يمكنني أن أغادر وسهير في المنزل، أعلم أنها لا تهتم بوجودي، لكن أخاف أن تتجه للقبو وإن فعلت ذلك ستكتشف البرميل سريعًا، وجودي في المنزل ضروري إذ يمكنني التدخل عندما أرى خطرًا ما.

أغمضت عينيها وسرحت بتفكيرها تبحث عن عذر لإخراج سهير من المنزل دون إثارة الشكوك، بعد مدة عادت لافتراش الأرض وقالت بتردد لرشا:

- ربما عليَّ أن أضع لها نفس الدواء الذي قاموا بإرغامي على ابتلاعه لتنام إلى أن أعود من زيارة الطبيب.
- هي فكرة لا بأس بها، لكن لما لا تنتظرين حتى تخرج إلى المحكمة أو تحتاج شيئًا يجبرها على الخروج فهي في كل الأحوال لا تحب المكوث في المنزل.
- أنا يا رشا لا أمتلك رفاهية الوقت ربما لو لم تكن تلك الجثة بالقبو لاختلف الأمر، أعتقد أني لو وضعت نصف قرص من ذاك المنوم سيوفر لي الوقت الكافي دون إثارة الشكوك، عليَّ أن أسرع لجلبه فقد رأيته في غرفة نجلاء عندما كنت أبحث بين أغراضها.

عندما فتحت باب غرفتها رأت سهير تصعد السلم بعد زيارة سريعة لشامة فلعنت حظها وعادت لغرفتها سريعًا، وأغلقت الباب متفادية أي احتكاك بينهما خاصة في هذه الفترة إلى أن تتبين الأمر، جلست قرب الباب تنتظر، سمعت صوت إغلاق الباب فانتظرت قليلًا، ثم همَّت بالمغادرة عندما سمعت الباب يُفتح من جديد وسمعت صوت خطوات تبتعد في اتجاه السلم، ففتحت الباب بخفة وبدأت تتعقب خالتها بنظرها، وكاد يغمى عليها من الفرح عندما رأت أنها اتجهت للباب الخارجي وغادرت.

أسرعت مريم إلى غرفتها لتغير ملابسها، بعد ذلك أخذت المال وطلبت سيارة أجرة ثم غادرت بسرعة تقطع السلم، كادت تخطو إلى الخارج عندما انتابها خوف شديد وتجمدت قدماها فحثتها رشا قائلة:

- أسرعي يا مريم السيارة على وشك الوصول وعلينا اجتياز الزقاق لنصل إلى الشارع حيث هي.
- لا أستطيع التقدم أكثر، قدماي متجمدتان بتُّ أكره الأماكن الحية، أحس بخوف شديد لا أستطيع السيطرة عليه، كلَّما ضغطت على نفسي للتقدم أحس أني أفقد السيطرة.

- يا إلهي أرجوك يا مريم، ستضيع كل جهودنا سُدى وكما قلت لم يعد لدينا رفاهية الوقت، ربما غدًا تنبعث الرائحة وبدل زجهم في السجن سيسجنونك أنت، حاولي السيطرة على خوفك، لقد خرجنا من قبل أتذكرين عندما رأينا نجلاء وصديقها؟ لكن ماذا حدث لك الآن؟
- لا أعلم.. كل ما أعرفه هو أني أحس بالاختناق كلما فكرت في الطريق وفي عيون الناس التي تتربص بي.
- لا أحد يتربص بك لقد سبق وتحدثنا عن ذلك، هيا يا مريم ستعود خالتك بعد قليل وتضيع فرصتنا، تذكري أن كل ما نفعله لأجل والدتنا.

بعد أن ألقت مريم نظرة تفقدية على الزقاق المؤدي إلى الشارع حيث تنتظر سيارة الأجرة دفعت نفسها دفعًا والدموع تُغرِق وجنتيها، عندما ابتعدت خطوتين أحست بدوار واضطراب في معدتها دفعها للاستفراغ، ثم مدت يدها إلى الحائط تستند إليه وتخطو بتثاقل في اتجاه سيارة الأجرة عندما دلفت إليها طلبت منه أخذها إلى أي طبيب أخصائي جهاز تنفسي جيد يعرفه غير الطبيب الذي عاين والدتها.

* * *

كانت عيادة الطبيب في الطابق الثاني في مبنى وسط المدينة، وقفت قليلًا تتطلع إلى المبنى بذعر تزداد وطأته كلما صعدت الدرج، استجمعت شجاعتها عند الباب ودون أن تشعر غرزت أظافرها في راحة يدها، وتقدمت إلى مساعدة الطبيب التي شجعتها بابتسامة وبجهد استطاعت مريم أن ترسم ابتسامة باهتة وهي تدلي بمعلوماتها الشخصية اللازمة:

- أنسة مريم يمكنك أن تستريحي في قاعة الاستقبال، الطبيب سيستقبلك بعد دقائق لحسن حظك ألغى العديد من المرضى مواعيدهم بسبب الزحام، لذا سيستقبلك بعد رؤية السيدة وأشارت لامرأة في الأربعينيات من عمرها تجلس بهدوء وهي تتصفح إحدى المجلات، شكرتها مريم واتجهت للقاعة حيث اختارت مقعدًا في أقصى الغرفة لتجلس عليه، وعندما رفعت المرأة رأسها عن المجلة أشاحت مريم بنظرها بعيدًا وحبست أنفاسها بتوتر، لتطلقه زفيرًا طويلًا بعد أن عادت المرأة لتصفُّح المجلة من جديد، استرخت قليلًا ثم تنبهت للألم في راحة يدها لتجدها مدماة من شدة غرز أظافرها، مسحت يدها بثوب تنورتها وبدأت تتنفس بإيقاع منتظم ولتشغل تفكيرها قليلًا جالت ببصرها في الغرفة تحاول بجهد إبعاد حالة التململ، شد انتباهها الطلاء الأزرق الفاتح الذي شكَّل مع الأرائك البيضاء

المريحة لوحة رائعة فابتسمت مريم بحبور عندما مـــزج عقلهـــا اللونين، لتقول بشرود إنه البحر وزَبَده الأبيض الـــذي كنـــت أحلم دومًا برؤيته، تابع عقلها خلق الصور الرائعـــة للشـــاطئ الذي لم ترَه قط.

قطع شرودها صوت المساعدة التي نادتها فانتبهـــت بدهشـــة إنهـــا وحيدة بالقاعة، واستغربت أكثر أنها استغرقت كل هذا الوقـــت في التفكير ولم تنتبه أن المرأة التي كانت تجلس معها بالغرفة قد أنهـــت كشفها بالفعل وأن دورها قد حان، اســـتجمعت شـــتات نفســـها بسرعة وأمسكت حقيبتها بقوة ثم بخطـــى بطيئـــة اتجهـــت لغرفـــة الكشف.

دلفت إلى الغرفة بتردد فاستقبلها الطبيب بابتسامة جعلت وجهـــه الأبيض النحيل يتلألأ، ألقى عليها نظرة مطمئنة، وبعد أن جلســـت طالبها بملفها الطبي بما أنها صرحت للمساعدة أنها تعاني من الربـــو منذ الطفولة، اضطربت مريم وأمسكت يداها مرة أخـــرى بثـــوب تنورتها تحاول مسح عرقهما وقالت بوجل:

- الحقيقة يا دكتور كل ما صرحت به للمساعدة هو صحيح لكنَّه لا يخصني، أنا هنا في استشارة طبية، ثم أضـــافت بخجـــل: أنـــا أعتذر، لكني حقًّا بحاجة لمساعدتك.

رأى الطبيب حالة القلق التي اعترتها فحاول قدر الإمكان تلطيف الموقف وأبان عن استعداد حقيقي للمساعدة، فأسرعت بالقول بعد أن رأت أنه تقبل الأمر بإيجابية:

- الحقيقة إن صديقتي توفيت وحدث ذلك أمام عيني، لكني لست متأكدة من سبب الوفاة وبما أننا في الأرياف فعائلتها لم تُعِرْ الأمر اهتمامًا وتقبلت موتها دون أن تحاول الفهم، أما أنا فلم أستطع إلى الآن تجاوز مجموعة من الأسئلة التي لم تفارق ذهني؟!
- حسنًا، أنا أفهمك، لكن هل حدث شيء غير طبيعي في الوفاة جعلك غير مرتاحة؟
- أظن ذلك، لقد كانت رحمها الله تعاني من نوبات ربو تزداد حدتها عندما يتغير الطقس، خاصة نحو الانخفاض، لكنها في الشهر الماضي أي في مايو، بينما كان الطقس مستقرًا قال أهلها إنها تعرضت لنوبة ربو ليلًا واستعملت البخاخ، لكن دون فائدة، أظن الأمر يبدو طبيعيًّا إلى الآن، لكن في الصباح عند الحادية عشرة كنت عندها وكان لون جلدها يميل للزرقة بشكل كبير، وكان واضحًا أنها تشعر باختناق شديد، والأمر اللافت أيضًا أنها عندما سعلت قامت بنفث الدم بشكل كبير ثم بعد لحظات توفيت.

وَجَمَ الطبيب قليلًا وظل صامتًا وانتشرت على جبينه اللامع غمامة رقيقة من الضيق وقال:

- أظنها كانت تعاني من وذمة رئوية مفاجئة أو ما يُسمى بفـــرط ضغط الدم الرئوي، وهي حالة مرضية تسببها السوائل الزائدة في الرئتين بحيث تتجمع داخل الرئة مما يصعب عملية التـــنفس، ويسبب انهيارها وبالتالي فنقص الأكسجين في الدم هو ما يسبب زرقة الجلد، أظن أن صديقتك كانت تعاني مـــن مشـــكلات في القلب فهي تسبب مثل هذه الحالة!

هزت مريم رأسها بالنفي فتابع الطبيب أو تتناول أدوية معينة أو أنها تعرضت لإصابة جسدية في جدارها الصدري.

استرعت جملة الطبيب الأخيرة انتباه مريم وتذكرت قول خالتها عن غرز إبرة في ظهر عاكف فأسرعت بالقول:

- أظنها سقطت وغرزت إبرة في ظهرها في تلك الليلة، فهل يمكن أن تكون هي سبب ما حصل؟
- إنها من الحالات النادرة، لكن نعم قد يتسبب غـــرز الإبـــرة في الصدر في انهيار الرئة إذا تم إدخال الإبرة بعمق أعلى الظهر أو في منطقة الصدر، الشيء الذي يؤدي إلى تمزقها وحتمًا في هذه الحالة أدى إلى تلف الأوعية الدموية في الرئة وهو ما سبَّب نفث

الدم، الحقيقة إني أستحضر الآن حالة مشابهة لما وقع، حـــدثت لسيدة شابة من نيوزلندا بعد جلسة وخز بالإبر فأصابت إحداها رئتها إذ غُرزت بعمق أكبر لكن تم إنقاذ الشابة بعد نقلها سريعًا للمشفى، وللأسف يبدو أن صديقتك لم يتم إسعافها، أتســـاءل كيف تم إهمالها هكذا، فالمعروف أن تعرضها لوذمـــة يعـــني أن امتلاء رئتيها بالسوائل يكون بشكل بطيء نســـبيًّا قـــد يمتـــد لساعات كما قد يمتد لأيام حسب نوع الإصابة طبعًا، وهو أمر مؤلم حقًّا، فكل محاولة تنفس تصاحب بألم يزداد مع ازدياد كمية السائل، أتساءل كيف لم ينتبه أحد لمعاناتها كل تلك الفترة، إنه أمر مؤسف حقًّا لأنه كان من الممكن إنقاذها.

شحب وجه مريم وابيضَّت شفتاها وبدت كأنما تعالج غصة تعتلج في صدرها حاولت التماسك، لكن لم تلبث أن انفجرت باكية:

- مريم، توقفي لا تنهاري هنا أرجوك؟ قد يثير رد فعلـــك ريبـــة الطبيب.

حاولت مريم أن تتماسك، لكنها لم تستطع فالألم كان أكبر ممَّا يمكنها تحمله فلم تجد غير غرز أظافرها في ساعد يـــدها في محاولـــة مؤلمـــة للتأقلم مع الألم العاطفي، تعاطف الطبيب مـــع حالتهـــا فحـــاول التخفيف عنها:

- أنا آسف أعلم أن الأمر صعب عليك، لكن الأمر لله، وأرى من ردة فعلك أن صديقتك عرفت حبك وتمتعت بصداقتك وهو أمر لا يتأتى للكثيرين.

لم تستطع مريم الكلام، فأومأت برأسها وغادرت الغرفة، وبسرعة تركت العيادة ونزلت السلم ركضًا لتجد نفسها في الشارع وبصورة آلية أوقفت سيارة أجرة، أعطته عنوان المنزل وهي في حالة الحد الأدنى من الوعي، بعد وصولها نزلت إلى الشارع بعد أن نقدت السائق كل المال الذي كان في حقيبتها، حاول إيقافها لكنها لم تستجب له وتابعت سيرها في الزقاق في اتجاه المنزل، وبصورة آلية دخلت واتجهت إلى الحمام وفتحت الشطاف وتركت الماء البارد يتدفق على جسمها لعدة دقائق الشيء الذي ساعدها على استعادة وعيها بالكامل، أخذت تتنفس ببطء وهي تركز على الأفكار التي بدأت تسترسل تباعًا دون توقف، وبدأت الصور تتكون أمام ناظريها منذ قدومها والأحداث التي أعقبت ذلك، ثم قفزت لصورة اللفافة التي سقطت من الوسادة أثناء بحث سهير عن المال، حدثت مريم نفسها بجهر لما ستخفي سهير شيئًا ما في وسادتها إن لم يكن ذا أهمية...

لم تستطع مريم أن تكمل جملتها، بدأت تلبس ثيابها بسرعة، قطعت السلم ودون أن تتردد فتحت غرفة سهير ولحسن الحظ لم تكن هناك، واتجهت إلى وسادتها فتحت السحاب وبدأت بالبحث وسط الحشو وأخرجت اللفافة ففتحتها بيدين مرتعشتين، وكما توقعت وجدت محقنة وإلى جانبها إبرة حقن طويلة ودون أن تلمسها أعادت لفها وأخذتها إلى غرفتها، ووضعتها تحت وسادتها ثم افترشت الأرض، وغرقت في موجة بكاء طويلة لساعة كاملة استنزفت كل طاقتها، وببطء وجهت وجهها لزاوية الغرفة وجلست دون أن ترف جفونها.

عادت رشا بعد ساعات من الغياب لتجدها جالسة دون حركة فارتعبت واقتربت منها:

- مريم هل أنت بخير؟

لكنها لم تتلق جواباً فازداد خوفها بعد أن تنبهت للنظرة الثابتة التي ملأت عينيها:

- أرجوك يا مريم تحدثي معي؟ أرجوك عودي لوعيك، بهذه الطريقة ستنزلقين إلى مكان الضلال، أرجوك استجمعي قوتك واخرجي من هذه الحالة.

لكنها لم تتلقَّ جوابًا أيضًا، حاولت بكل السبل تحفيزهـــا، لكـــن لم تنجح، وغادرت بعد ساعتين من المحاولة.

استمرت مريم صامتة تجلس في نفس المكان دون أكـــل أو شـــرب ليومين كاملين، وعندما عادت رشا مرة أخرى ووجدتها في مكانهـــا فاستشاطت غضبًا وانفجرت في وجهها:

- مريم أوقفي هذه الحالة فورًا إن كنت تردين الاستســـلام فلـــمَ كبدت نفسك كل هذا العناء، لمَ بذلنا كل هذا الجهد، تنهدت مريم بتعب وبصوت وهن:
- أحد الحكماء قال: «كل واحد منا يحمل معه الجنة والنار وأنت مخير في حياتك إما أن تكون ترابي الجسد وسماوي الـــروح، أو ترابي الجسد والروح».

وأنا كنت أضع خططًا ستربطني للأبد بالأرض لأكون ترابية الجسد والروح، ثم أضافت: كان توقف ضروري لبدء الفصـــل الأخـــير، لكنك كنت تشوشين تفكيري طوال الوقت، اسمعي أنا أقترح عليك أن تغادري، وعودي غدًا فيومنا سيكون طويلًا.

ابتسمت رشا بفرح:

- أفهم من هذا أنك كنت تخططين لشيء ما!

- تعالي غدًا ودعيني أريك ما تحوي قبعة الساحر.

انتقام مريم:

سهير:

استيقظت مريم في الساعات الأولى من الصباح وتسللت بخفة إلى غرفة نجلاء لتجهز كل ما يلزم يومها الطويل، أخذت تقلب فوضى الملابس بصبر كبير والتمعت عيناها عندما وجدت العديد من قفازات النايلون المضادة للانزلاق وقفازات قطن فأخذتها، استرعى انتباهها أيضًا وهي مغادرة جمبسوت نسائي وطاقية صوف، أخذت غنيمتها فرحة وغادرت لغرفتها، لكن قبل أن تصعد السلم اتجهت للمطبخ لإسكات جوعها، صنعت لنفسها شطيرة جبن التهمتها واقفة وغسلت الأطباق ثم غادرت لغرفتها تنتظر.

وكالمعتاد عاكف تأخر في النوم إلى الساعة الحادية عشرة نهارًا، أخذت مريم تقطع الغرفة في قلق، لكن عندما شعرت به ينزل السلم في اتجاه المطبخ حيث كانت سهير تجهز الغذاء تنفست الصعداء، وأسرعت إلى النافذة تتربص خروجه، توالت الدقائق وصارت ساعة دون أن يظهر، أحست بالرعب من أن خطتها فشلت حتى قبل أن تبدأ، فعلى ما يبدو أن عاكفًا غيَّر عادته فجأة وعليها انتظار يوم آخر، وبكثير من الحظ جحظت عيناها وهي تراه أخيرًا يخرج ويسير

في الزقاق، ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تراه يبتعد حتى اختفى عن ناظريها، فأسرعت بلبس جمبسوت فوق ثيابها وربطت شعرها على شكل كعكة، ثم وضعت طاقية الصوف وكذا وضعت اثنين من قفازات النيلون في كل يد وأسرعت في اتجاه القبو، مرت بالمطبخ بخفة وفتحت باب القبو ثم أنارت مصباحه وعادت بخفة إلى غرفة نجلاء القريبة، وجلست هناك تنتظر أن تخرج سهير من المطبخ، وبالفعل بعد عدة دقائق خرجت وكما هو متوقع رأت نور القبو مضاء فاتجهت إليه غاضبة تلعن مريم إذ تظن أنها بالأسفل، بعد أن تحركت ناحية السلم وبدأت بنزول الدَّرج باغتتها مريم بضربة على الرأس من الخلف.

فاجأت الضربة سهير فتدحرجت على السلم لتسقط أسفله فاقدة الوعي، أسرعت مريم إليها فهي تعلم أنها ستعود إلى وعيها قريبًا، فأحضرت كرسيًّا وحاولت بكل جهدها وضعها عليه، كان الأمر مجهدًا جدًّا، لكنها استطاعت أن تنجزه بعد عدة محاولات، لم تتوقف لتلتقط أنفاسها وكأنها الرغبة في الانتقام فأسرعت تلف الحبل حول سهير، بعد أن كبَّلت يديها ورجليها لفته مرات عديدة تاركة منطقة مفتوحة أعلى الظهر، وبعد أن تأكدت من إحكامه بقوة جلست تحاول استعادة أنفاسها، ولأول مرة تنتبه للرائحة الغريبة التي ملأت هواء القبو إلى جانب رائحة العفن التي كانت به، أخذت مريم نفسًا

تحاول أن تحلل ماهيتها، فانتبهت إلى أنها كريهة وليست نفاذة، لكن يمكن الاستدلال عليها، فتنبهت بقلق أنها بكل تأكيد رائحة تحلل نجلاء، فيبدو أن الإسمنت لم يستطع أن يمنع انتشار الرائحة وسرعان ما ستزداد، لذا دون أن تنتظر أسرعت مرة أخرى تقطع الدَّرج في اتجاه غرفة سهير ولجتها بسرعة، واتجهت إلى الحمام فأخذت تبحث بين الأغراض عن فرشاة شعر عاكف، وعندما وجدتها بدأت تبحث بين أسنانها عن شعرة ذات جذر، التقطت واحدة بملقط صغير، وضعتها في محرمة كانت معها ثم عادت إلى القبو.

عندما وصلت تفاجأت بسهير تصدر أصواتًا غير مفهومة وتحاول جاهدة فتح عينيها، فأسرعت مريم بوضع الشعرة في جزء الشريط اللاصق الذي قصته للتو ثم أغلقت به فم سهير:

- لَمَ فعلت ذلك يا مريم، ما فائدة وضع الشعرة؟
- أخيرًا أتيتِ لَمَ كل هذا التأخير يا رشا؟
- أنتِ لم تسمحي لي بالقدوم، أفكارك المتسارعة وتركيزك على نفس الشيء منعني من الظهور، حسنًا لِمْ تجيبي لَمَ وضعت شعرة ذات الجذر في الشريط هل تفكرين في تقديم عاكف ككبش فداء؟

- لا ليس ككبش فداء فهذا القول ينطبق على من كان بريئًا أما عاكف فيداه متسختان بكل شيء، بالقتل والسرقة والفسق، لذا فهي تصفية حساب.
- احذري لقد استيقظت وأظنها بدأت باستيعاب وضعها.

فتحت سهير عينيها بتثاقل فما زالت الضربة التي تلقتها تؤلمها بشدة حاولت التركيز أكثر، لكن ألم رأسها كان كبيرًا فحاولت رفع يدها لتتحسس مكانه ففوجئت بيديها مربوطتين، فتحت عينيها من الدهشة، ثم بسرعة أنزلت بصرها لتصدم من رؤية جسدها مربوطًا بإحكام إلى الكرسي، ارتعبت حتى كادت عيناها تخرج من محجريهما عندما أدركت أن فمها مكمَّم أيضا، انتشلها صوت مريم من صدمتها لتوجه بصرها ناحيتها فوجدتها تجلس بعيدًا متجهمة:

- لقد استعدت وعيك بسرعة أظن أن الضربة كانت أخف مما توقعت.

ابيضَّ وجه سهير عندما سمعتها، حاولت التحرك، لكنها لم تستطع فتجهم وجه مريم أكثر حتى صار بشعًا وتابعت:

- لَمَ قتلت أمي أكان كل الألم الذي مرت به فقط من أجل المال؟

حركت سهير رأسها وبدا الخوف الشديد في عينيها فأومأت برأسها تحاول قول شيء ما:

- «لا تجهدي نفسك» أظن أنها نفس الجملة التي استعملتها عندما حاولت أمي الحديث، أنا الآن أقولها لك: «لا تجهدي نفسك يا سهير لقد علمت كل شيء وبالتفصيل الممل، أعلم دافعك وأعلم طريقة قتلك لأمي، أعلم كل شيء لذا لا فائدة تُرجى من أي قول تقولينه، لكن إذا بقي لك ذرة من الخلق أجيبيني: هل كانت تعلم المغسِّلة بما اقترفت يداك؟ فأنا أتساءل إن كنت دفعت لها لتسكت عن فعلتك؟؟ هيا أجيبيني!! هل كانت تعلم؟».

لم تتحرك سهير وظلت على حالة الخوف السابق، فاقتربت منها مريم وقالت:

- فقط حركي رأسك فلربما جوابك يشفع لك أو يجعل لك مخرجًا.

لم تتحرك سهير، بل ظلت على حالة الخوف التي كانت عليها، وظهر ذلك جليًّا في النظرة التي ارتسمت في عينيها، برز ذقن مريم وحدقت مباشرة في وجهها:

- كنت أعلم أنك ستتخذين هذا الموقف فقد بعت نفسك للشيطان ولا أظنك نادمة، لكن ارتاحي بالًا فأنا لدي طرقي لأعرف، ثم أضافت بقسوة متعمدة وهي تلتف وراء ظهر سهير:

- كانت أمي امرأة هزيلة ومريضة، تعاني بصمت بعد أن مات معيلنا الوحيد أبي، عرفنا صنوف الحاجة، لكن حافظنا على السجيَّة النقية، أمي كانت نقية وتقية وظنت أن كل العالم مثلها، هي لم تعلم عندما قدمت إلى هذا المكان أنها قدمت حيث الشر، لم تكن تتصور أنك شيطان متجسد في هيئة إنسان، طمعت بالمال حتى هانت عليك النفس، أنا فطنت لذلك، لكن لا أحد استمع لي، لذا لم يعد لي سوى أن آخذ ثأري بيدي فغرزت الإبرة في أعلى ظهر سهير بكل قوة، قفزت سهير من الألم، فقالت مريم: «العين بالعين»، ثم تابعت: «ولأن أمي كانت تعاني من الربو فقد عانت أكثر لذا...».

رفعت مرة أخرى الإبرة إلى الجانب الآخر من الظهر وغرزتها بقوة أيضًا فأُغمي على سهير، ابتعدت مريم ودموعها تهدد بالانطلاق فأمسكتها بحزم:

- لا لن أبكي، هي لا تستحق كما لا ينبغي أن أترك أثرًا للدموع هنا، لن أفسد كل ما خططت له من أجل عاطفة لا تستحقها، لقد اتخذت كافة الاحتياطات لتكون نسبة الخطأ صفرًا، ألا ترين يا رشا أني قمت بتغطية شعري بالكامل مستعملة طاقيتين بدل واحدة؛ لكي لا أترك أي شعر في المكان والأهم ألا يلتصق بالشريط فهذا احتياط مهم جدًّا، أعلم أن وجود حمض النووي

عليها لن يشكل معضلة فأنا أعيش معهم ولا بد أن يكون بأي مكان أدخله، حتى وجوده هنا في القبو ليس بالمشكلة فقد سبق وزرت القبو، والبطانية التي أستعمل أخذتها من هنا، يكفي أن يتم تحليل البكتيريا والعفن الذي بها ليتأكدوا أنها من نفس المكان، أما القفازات فسأقوم مباشرة بعد صعودي للمنزل بإحراقها والتخلص منها؛ لأن بها عَرَق وزيوت نتيجة حرق الدهون الخاصة بي.

فقالت رشا:

- والإبرة ستتركينها هنا؟
- لا سأتركها في غرفة سهير ربما في سترة عاكف التي لا يستعملها، فهي دليل مهم جدًّا لا تنسي أن بها بصمات عاكف في جريمته السابقة ضد أمي، وأنا عملت جهدي لتظل تلك البصمات بها.

فقالت رشا بفرح:

- هذا رائع جدًّا يا مريم، لكن ماذا عن نجلاء فنحن لم نأخذ كل هذه الاحتياطات.
- لا تخافي.. كما قلت وجودنا معًا في المنزل يجعل وجود الحمض النووي الخاص بي عليها أمر عادي، والأهم أننا لم ندخل أنا

وهي في صراع جسدي يمكن أن يترك جلدًا تحت أظافرها، لقد سقطت ودُقَّ عنقها وعندما ضربتني كان ذلك بالكرسي لا بيدها هذا يعني أن لا شيء يربطني بوفاتها، التمعت عيناها وهي تضيف: سنوحي للشرطة أن عاكف هو من قام بإخفائها، لا تنسي أن أمها نشرت فكرة أن ابنتها تشاجرت مع والدها وتركت المنزل، دعيهم يفكرون إذن أنه فعل بها شيئًا بعد معرفته بعلاقتها برجل.

- يا إلهي لقد بدأت تخيفينني يا مريم.
- لا تستعجلي فما زال في جعبتي الكثير، والآن دعينا نصعد للتخلص من القفازات ونخطط للقادم، وسأعود لزيارة سهير لاحقًا فأمامنا وقت طويل قبل أن تمتلئ رئتاها بالسوائل.

كان هدوء المنزل يثير في نفس مريم سابقًا الراحة والسكينة، لكن على عكس المتوقع فهدوؤه الآن أثار فيها مشاعر الحزن والوحدة، جالت ببصرها في المكان وتنهدت بحسرة، ثم التفتت إلى رشا التي كانت تتعقبها صامتة فقالت بضيق:

- هذا السكون يثير فيَّ مشاعر متناقضة أشعر بالخوف... التوتر، لكن أيضًا بالإثارة أحس أني جاهزة لأنهي هذا الفصل من حياتي...

- لَم تتلعثمين ثانية يا مريم؟ هذه المرة الثانية التي انتبه فيها لهذا الأمر.
- إنه شيء خارج عن إرادتي أظن أن التوتر يؤثر عليَّ بشكل كبير.
- ربما، لكن عليك التغلب على هذا المشكل سريعًا، المهم إذا عدنا لقولك أجد أن خوفك شيء طبيعي فالطريق التي اخترتها صعبة لا تنسي أننا نتحدث هنا عن القتل مع الإصرار والترصد.
- أنا لا أهتم لهذا يا رشا لقد خططت لكل شيء، إنما أعني الخوف من شكلي في النهاية أنا مرعوبة من الوحش الذي سأكونه، أتعلمين لقد قرأت سابقًا عن نظرية مايكل أنجلو والذي قال فيها إن أيَّ حجر يحمل داخله تمثال لم يتشكل بعد، في إشارة لتأثير الأقارب والعلاقات في تشكيل ونحت شخصية الفرد، وبعد كل ما مر بي أرى أن أمي نحتت نصف تمثالي الجميل وسهير نحتت نصفي البشع، والآن في نظرك لو نظرت لي بشكل كلي كيف سأبدو؟! مؤكد أني سأكون مسخ مخيف.
- أعلمُ معاناتك يا مريم، لكن لو عدنا إلى يوم وفاة والدتنا هل كنت اخترت طريقًا غير هذا الطريق؟!
- أبدًا، وأعتقد أنه الطريق الوحيد الموجود.

- إذن دعي كل تلك الأفكار تتداعى وأخبريني كيف سنقضي كل هذا الوقت حتى يحين وقت عودة عاكف؟

الاعتداء

انتظرا لما يقرب الساعتين ثم استسلمت مريم لنوم عميق لم تستيقظ منه حتى قاربت الساعة السادسة مساء، فأسرعت بخطى غير متوازنة نتيجة الارتباك، أنارت المصباح ونزلت السلم مهرولة فوجدت سهير على الأرض بعد محاولتها الفاشلة في فك الحبل، كانت شاحبة بشكل لافت ولون جلدها بدأ يميل للزرقة، اقتربت منها مريم دون أن تلمسها وقالت:

- أظنك الآن تحسين بنفس ألم أمي هل أدركت كمية العذاب التي ارتضيتِ لها، صمتت عندما رأت دمعة تنزل من عين سهير وتواصل طريقها عبر خدها، فتابعت مريم: «لا أظن أن الندم مهم الآن، هذا إن صدقت أنك نادمة، حاولت سهير أن تحرك رأسها وكأنها تحاول قول شيء ما، لكن مريم لم تلقِ بالًا لمحاولتها، وقالت: عليَّ الآن أن أستعد لزوجك النتن؛ لذا سأتركك الآن لتتابعي رحلتك إلى الجحيم، ولا تخافي ستجدين هناك رفيقة في انتظارك، نظرت سهير لها بندم، فأكملت مريم بقسوة:

- لا، تفكيرك خاطئ فأمي لن تكون أبدًا رفيقتك فهي كانت طاهرة ونقية، ثم ثبتت نظرها في وجه سهير وقالت: «ستجدين نجلاء في انتظارك فقد غادرت منذ مدة»، وبجهد هستيري حاولت سهير فك قيودها ممَّا زاد حالتها سوءًا وازرقَّ جلدها أكثر، أخذت مريم تنظر لها بلا مبالاة وبعد أن سكنت كل محاولاتها أضافت مريم بفتور: «أظن أن من حقك معرفة قبر ابنتك»، ودون أن تنتظر أشارت للبرميل، وقالت: «هناك في ذاك البرميل ترقد نجلاء، لقد كانت تنوي بالفعل الهرب، لكن القدر منعها»، اقتربت منها مريم دون أن تلمسها أيضًا، وقالت: «عليَّ المغادرة الآن أرجو لك رحلة موفقة وانتظريني فأنا أيضًا سأكون خليلتك هناك».

قضت مريم الساعات التالية بين المراقبة ومحاولة السيطرة على التوتر الذي جعل عضلات جسدها مشدودة، فبدأت تمارين التنفس العميق في محاولة فاشلة للاسترخاء، لم تستطع الانتظار فاتجهت للمرة المئة إلى النافذة تراقب عودة عاكف، ولا إراديًا بدأت بقضم أظافرها، لكن حركتها توقفت بعد رؤيته من بعيد قادمًا يحاول بجهد الحفاظ على توازنه، ارتجفت رموشها السوداء قليلًا وأمسكت برأسها بعد أن فاجأها صداع وخز مؤخرة رأسها.

- لا تتوتري يا مريم، أنت تعرفين عادته اتركيه ينام ثم افعلي ما يحلو لك.
- لا أستطيع، يجب أن أكلمه فبعد قليل سيبدأ بالبحث عن سهير وربما يتجه للقبو وتفشل كل خطتي، سأبحث عن شيء يشد انتباهه، اضطربت أكثر وحاولت منع التقيؤ الذي فاجأها، حاولت التماسك بما أوتيت من قوة ثم أسرعت إلى الدَّرج ومنه إلى الحمام وقامت بغسل وجهها، بعد أن خرجت وجدت عاكف دخل للتوِّ، نظرت إليه بتقزز فابتسم ابتسامته المعهودة وصعد إلى غرفته، لكن عاد بعد دقائق إلى المطبخ وعندما لم يجد سهير سأل مريم التي بقيت مكانها قرب القبو دون حراك:
- أين خالتك هل خرجت؟
- أجل لقد تلقت اتصالًا من نجلاء فغادرت، أظن أنها في ورطة فقد ألقت شرطة الحدود القبض عليها رفقة أحدهم وهي تحاول التسلل.
- لم يعد أمرها يهمني، يجدر بسهير تركها هناك فأنا لن أستقبلها بعد هذه الفضيحة، التفت إلى المطبخ وقال: «ألم تجهز العشاء قبل مغادرتها كان عليها... ودون أن يكمل كلامه التفت ينظر لمريم بنظرة خبيثة، وقال:

- إذن نحن لوحدنا في لمترل أليس هذا رائعًا؟! فحاول الاقتـــراب من مريم، شحبت بشرتها وأسرعت إلى غرفة نجلاء القريبة منها بعد أن سد عاكف طريق الصعود إلى غرفتها، ولجـــت الغرفـــة بسرعة وأغلقتها، لكنه حطم الباب بقدمـــه ودخـــل الغرفـــة بابتسامة ذئبية:
- إياك والاقتراب مني أيها النذل سأصرخ إن فعلت.
- افعلي فلن تفلتي مني هذه المرة ولا داعي لاستعمال أسنانك فقد استوعبت الدرس في المرة السابقة؛ لذا حافظي عليها ولا تفعلي شيئًا يكون سببًا في تحطمها، مد يده فأمسك يـــدها فأســـرعت مريم بغرز أظافرها في جلده قبل أن يختل توازنها وتسقط.

بشعر أشعث وملابس ممزقة جلست مريم في زاوية الغرفـــة تنظـــر لعاكف الذي كان يغط في نوم عميق وعلامات الاشمئزاز واضحة في محياها، بقيت هناك دون حراك، تحارب إحساس النفـــور والرغبـــة كبيرة في أذية نفسها، ودون سابق إنذار قامت بصفع وجههـــا ولم تتوقف، بل تابعت حتى تورم خدها.

- لَمَ تفعلين ذلك بنفسك يا مريم؟! لَمَ تعـــذبينها، الأَوْلى لـــك أن تأخذي ثأرك من هذا النذل الذي يغط في النوم العميق.

أجابت بصوت خافت مليء بالخيبة:

- لا أستطيع أن أفعل له شيئًا بيدي، لكني أحضر له الأسوأ، فمنذ لحظات حكم على نفسه بالإعدام، لكني أكره نفسي وأكره كل مكان لمسه، كلما تذكرت أشعر بالرغبة في الاستفراغ، لكن كان عليَّ التضحية.

أمسكت رشا برأسها من هول ما سمعت، وقالت بذهول:

- هل خططت لكل ما حصل؟

بصوت أجش مليء بالدموع قالت بعد أن نكست رأسها:

- كان عليَّ التضحية، إنه ثمن غالٍ أديته في سبيل انتقامي، هو وسيلتي الوحيدة لأعبر إلى بر الأمان وأُلصق به كل التهم، صمتت للحظات ثم تفقدت ساعة يدها فظهر الاسترخاء عليها، وقالت: «أظن حان الوقت لتحركي الأخير».

انسحبت مريم من الغرفة بهدوء، وأسرعت في اتجاه القبو، ونزلت السلم فوجدت سهير في مكانها دون حراك، أمعنت النظر فظهر لها أن أطراف الشريط اللاصق مليئة بالدم فتنهدت بعمق بعد أن تأكدت من مفارقتها الحياة، فلا شك في أن الدم نفسه خنقها لأن لا

مخرج له، نظرت لها بكره وبخطى بطيئة مليئة بالحسرة، اتجهـــت إلى السلم تصعده ومنها إلى خارج المترل.

التحقيق

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل، عندما فتحت الباب الخارجي بهدوء وألقت نظرة تفقدية على الزقاق الذي كان فارغًا إلَّا من بعض قطط الشارع، بقيت مكانها لثواني، أخذت نفسًا عميقًا ثم اتجهت مهرولة إلى منزل السيد حلمي، وبدأت تدق الباب بعنف وهي ترتجف فمعظم ملابسها ممزقة، وبعد لحظات من الانتظار رأت مصابيح بيته تنير تباعًا، فعدلت من وقفتها بسرعة وعلا وجهها خوف مصطنع، فتح الباب وخرج السيد حلمي مرتبكًا، وازداد ارتباكه عندما رأى مريم ومظهرها، وقبل أن يقول أي شيء بادرته مريم بقولها:

- من فضلك يا سيد حلمي ساعدني أنا أريد التوجه إلى مخفر الشرطة، من فضلك خذني إليه.
- يا إلهي!! ماذا حدث لك يا فتاة؟ هل سهير من فعل بك هذا؟ كنت أعلم أن تلك المرأة قاسية.

بدأت مريم بالنحيب وقالت بصوت مخنوق بالدموع:

- لا أدري أين خالتي منذ أن تشاجرا لم أرها، عاكف من فعل بي هذا، ثم أنزلت عينيها في الخجل، فقطَّب حلمي حاجبيه وشد قبضتي يديه وكان واضحًا هدفه من الاندفاع نحو المترل، فقفزت مريم برعب بعد أن أدركت أن خطتها في خطر، فهرولت بسرعة ووقفت في وجه السيد حلمي وأمسكت بيديه، وقالت:
- «لا تفعل! أرجوك يا سيد حلمي، أنا خبرت فؤادك المتقد في الذَّود عن المنكوبين، أعلم أني تعرضت لظلم كبير، لكن ضربك له لن يحل المسألة ولن ينصفني، فكل ما ستفعله هو تنبيهه ليهرب بعيدًا عن العدالة، لذا دَعْه في نومه العميق وخذني إلى الشرطة؛ فأنا أريده أن يُسجن».

بعد قولها تراجع السيد حلمي رغم أنه لم يستسغ ترك عاكف دون أن يرسم شيئًا على وجهه، دار على عقبيه واتجه إلى مترله لجلب دثار وضعه عليها وقصدا الشرطة.

* * *

بعد يوم صعب قضاه الضابط فاروق في القسم، تنفس الصُّعداء أخيرًا وهو يتأبَّط محفظته السوداء ويُسرع الخطى في اتجاه سيارته، دلَّك رقبته وأغمض عينيه قليلًا ليستعيد تركيزه، ثم وضع حزام

السلامة، وقبل أن يدير مفتاح السيارة استوقفه حارس الأمن علاء، تجهَّم وجه فاروق فأسرع علاء بالقول:

- سيدي، وفدت للقسم حالة تستدعي حضورك، إنها فتاة مراهقة تدَّعي تعرضها للاعتداء!

زفر الضابط فاروق بصوت مسموع وغادر سيارته متسائلًا في نفسه عمَّا يحصل في المنطقة التي يشرف عليها، وكأن الجميع تحالفوا لإثارة المتاعب تباعًا في يومه الأول بعد الإجازة، أسرع الخطى نحو مكتبه وطلب إيفاد الفتاة.

جلست مريم في مقعد بالقسم، ضمت قبضتَي يدها بعنف، دليل المعركة النفسية التي تحارب فيها رغبةَ الهرب، رغم أن قسم الشرطة كان شبه خالٍ إلا من حارس الأمن الذي غادر للتوِّ لمناداة الضابط، غير أن تفكيرها في وجوده إضافة إلى الضابط والسيد حلمي جعلها تشعر بالاختناق، رفعت عينيها وأخذت تلعن في سرها رشا التي غابت عندما احتاجت لها، فجأة استرعى انتباهها صوت احتكاك حذاء بالأرض بدأ يقترب، فيما هي خفضت بصرها لكي لا تأتي بأي حماقة كأن تهرول إلى الخارج، توقف الصوت قربها ثم دخل صاحبه الغرفة المجاورة بعد برهة، استدعاها الحارس.

ساعدها السيد حلمي على الوقوف، ثم ربَّت على كتفها مطمئنًا بعد أن رأى امتقاع لونها ويديها المرتجفتين، فتح لهما الشرطي الغرفة فدخلاها، فعضت شفتها السفلى بعد أن رأت شخصًا آخر إلى جانب الضابط ربما هو مساعده، أبعدت نظرها عنهما سريعًا، وفكرت أن عليها الإسراع بإتمام هذا البلاغ لأن التفكير في عدد الموجودين يخنق روحها كطوق ضيق أُحكم وضعه.

لانتْ أسارير فاروق وطرد التجهُّم عن وجهه عند رؤيته للحالة التي كانت عليها المجني عليها، طلب منهما بصوت أجش الجلوس ثم بدأ أسئلته:

- ما اسمك وسنك يَا بنَتي؟

لم يتلقَّ جوابًا فقد كانت مريم منشغلة باستنشاق عطر زهر الرمان الذي ملأ الغرفة، فاتسعت عيناها وركزت كل حواسها على الفتاة الواقفة وراء مقعد الضابط متجاهلة ما حولها!

- يا آنسة هل سمعت سؤالي؟ هل هي صماء!

وجَّه حلمي نظره إلى مريم وترقرقت الدموع في مقلتَيه حاول إمساكها، لكنها انسابت باندفاع وأجاب الضابط قائلًا:

- لا، ليست صماء يا بني، ولكن جار عليها الدهر وعرفت رزاياه وهي في هذه السن الصغيرة.
- من أنت؟ هل أنت والدها؟

استعادت مريم تركيزها بعد تنبيه رشا لها فأجابت بتلعثم واضح:

- لا، هو ليس والدي، ولكنه رجل طيب طلبت مساعدته، إنه جار خالتي، أما أبي فقد توفي منذ خمس سنوات.
- إذن ما اسمك وسنك؟
- اسمي مريم وأنا في الخامسة عشرة.
- أنت قاصر، بما أن والدك متوفًى فلماذا لم تحضر والدتك معك، أو تحضري مع الوصي عليك؟

اغرورقت عينا مريم:

- أمي توفيت منذ خمس وأربعين يومًا، وأظن أن خالتي سهير هي الوصي عليَّ، لكني لا أعرف أين هي، فمنذ شجارهما أي خالتي وزوجها عاكف أنا لم أرَها، وزوج خالتي استغل غيابها واعتدى عليَّ.
- تعازيَّ الحارة لك، إذا كان زوج خالتك هو من اعتدي عليك هل كان ذلك في مترله؟
- أجل فأنا أقطن المترل معهم منذ أن قدمت مع أمي للمدينة.

- خالتك لا تعلم بما حدث؟
- لا، فبعد شجارهما العنيف التزمت بغرفتي ولم أخرج منها كما اعتدت أن أفعل منذ أن بدأ يتحرش بي، لكني انتظرت طويلًا ولم تأتِ خالتي للاطمئنان عليَّ كما تفعل دائمًا، انتظرت حتى غلبني النوم، لكن بعد أن استيقظت استبدَّ بي الجوع فاستجمعت شجاعتي وخرجت أبحث عنها، ولم أجدها في أي مكان بالمنزل، فأسرعت بصنع شطيرة جبن لنفسي، التهمتها بسرعة، وعندما قررت العودة لغرفتي وجدت عاكفًا عند الباب ينظر لي بنظرات مقرفة، فهربت إلى غرفة نجلاء بعد أن سد في وجهي طريق الصعود إلى غرفتي وقمت بإحكام إغلاق الباب، لكنه كسره واعتدى عليَّ رغم توسلاتي.
- ارتاحي بالًا سينال عقابه، لكني أحتاج وجود خالتك لتوقيع المحضر فهي وصية عليك، أليست لديك أية فكرة عن مكان تواجدها، ربما لكما أقارب في المدينة أو خارجها!
- لا، لا أقارب لنا كانت أمي وخالتي... أختين وحيدتين.

نظرت مريم حولها ووضعت يدها على جبينها المغضن كأنما تفتش في طياته عن بعض الذكريات، وقالت بصوت مخنوق:

- لا أدري لِمَ لَمْ تخطر لي الفكرة من قبل، لكن أظن أن خالتي قد قررت أخيرًا مغادرة المنزل خاصةً بعد ضرب عاكف لها، ربما قررت اللجوء إلى الخالة شامة فهي صديقتها.

ارتفع صوت الضابط بغضب بعد قولها وحثها على المتابعة بسؤاله:

- هل تعرضت خالتك للضرب؟ هل قام عاكف بضربها؟

اضطربت مريم وقالت بصوت ممتلئ بالدموع:

- أنا لم أستطع النزول إلى الأسفل كنت مرعوبة من عاكف، والبارحة كان غاضبًا جدًّا أظنه قد خرج عن طوره وكسر الكرسي أو الطاولة لا أعلم بالضبط ماهيته، وأتبع ذلك صراخ خالتي القوي فعلمت أنه ضربها فقد كانت صرخة ألم، أنا آسفة لكني ارتعبت وهربت إلى غرفتي وأوصدتها حتى إني قمت بوضع كرسي على الباب، صمتت وأطرقت برأسها ثم قالت باكية:
- أنا آسفة، لم أستطع مساعدتها ربما لهذا غضبت ولم تتصل بي كل هذه المدة، لقد كنت خائفة، وفي النهاية ما كنت أخافه قد حصل، أنا الآن لا أستطيع ولن أستطيع النظر في وجهها.
- هوني عليك فالذنب ليس ذنبك، بل أنت ضحيتهما معًا، كان على خالتك التبليغ عن محاولاته التحرش بك فمن واجبها حمايتك.

أمسك فاروق بهاتفه وبدأ الحديث مع طرف آخر، وبصرامة أعطى مجموعة من الأوامر للطرف المتلقي، ثم أغلق هاتفه والتفت إلى السيد حلمي:

- لقد قلت إنك جارهم هل تعرف المدعو عاكف؟

ابتسمت مريم خلسة لهذا السؤال، فيما أجاب السيد حلمي بتحامل:

- أجل يا بني أنا أعرفه هو سكِّير الحي، الكل يعرفه لعربدته الدائمة ولشجاره المستمر مع السيدة سهير، فهو أسوأ خلق الله يعيش عالة على زوجته وابنته، حتى تعبت الأخيرة وهربت رفقة رجل.
- وماذا عن الواقعة هل سمعت شيئًا في هذه الليلة لفت انتباهك؟
- لا، لم أسمع شيئًا، فبعد يومي المتعب نمت سريعًا ولم أستفِق إلا على صوت بابي يطرق بعد منتصف الليل، لأجد مريم على هذه الحالة والباقي أنت تعلمه سيدي.
- حسنًا ستوقِّع على أقوالك وستغادر رفقة شرطيَّين، أريد منك أن تصحبهم إلى الحي وتدلهم على منزل عاكف؛ فالظلام ما زال حالكًا ولا نريد إيقاظ كل من بالحي، كما أريدك أن تدلهم على

منزل شامة لإحضار سهير، وإن استدعت الحاجة سنتصل بـــك لذا اترك رقم هاتفك.

- والفتاة سيدي ماذا سيحصل لها؟
- لا تخف أيها الرجل الطيب فهي في عهدتنا، سنرسلها إلى المختبر الطبي لأخذ العينات اللازمة من سوائل وغيرها الـــتي تركهـــا الجاني عليها، ثم إذا استدعت الحاجـــة سنرســـلها إلى المشـــفى لتخضع للمواكبة النفسية التي تستدعيها مثل هذه الحـــالات، والآن غادر يجب ألَّا نضيع المزيد من الوقت للقبض على ذلـــك النذل.

كان القبض على عاكف سهلًا جدًا، فقد كان لا يزال يغط في النوم عندما تسلل الشرطيين بفضل المفتاح الذي ناولته لهم مريم، وجداه في الغرفة التي وصفتها لهم والتي كان واضحًا على بابهـــا علامـــات كسر بالقوة، سجَّلا الملاحظة ثم باغتاه وألقيا القبض عليه، واقتـــداه إلى المخفر وهو في حالة ذهول لما يحدث حولـــه، ولســـوء حظـــه فالضابط أصر على استجوابه وألغى كل تفكير لديه في الراحة، لذا استقبله بوجه متجهم وكره واضح:

- أدلِ باسمك وسنك؟

هزَّ عاكف رأسه في ارتباك وارتسمت على وجهه علامات الخوف.

رفع فاروق رأسه للسماء، وقال:

- يبدو أن ليلتي هذه ستكون طويلة، وأرجو إلا ينفد صبري لكيلا أرتكب ما لا تُحمد عقباه، ألم تسمع سؤالي يا هذا؟
- أنا آسف فأنا مندهش من وجودي هنا لذا أنا مرتبك قليلًا.
- مندهش! أحقًا أنت مندهش ولا تعرف السبب، ثم مسح فاروق وجهه بيده وقال: «لِنَعُدْ للبداية.. اسمك وسنك؟».
- اسمي عاكف عاشور، وقد نيَّفت على الخمسين من العمر.
- في الخمسين من العمر ولم تستحِ من الاعتداء على طفلة في عمر الخامسة عشرة فقط؟!

تراجع عاكف للخلف خوفًا من الغضب الذي أظهره الضابط، فقال مدافعًا عن نفسه:

- أقسم أنا لم ألمسها أبدًا؟ لا أدري لما قالت ذلك، يجب أن تعلم يا سيدي أنها مجنونة.
- أتعتقد أن كل من حولك غبي مثلك! توقف عن المراوغة وأسرد عليَّ ما حدث بالتفصيل، والأفضل لك ألا تختبر صبري فأنا لم أنم منذ أربع وعشرين ساعة، أنا غاضب وكاره لكل ما حولي، لذا أنصحك بالتفكير قبل أن تنطق بأية كلمة، ولأوفر عليك الجهد أقول لك الخدوش التي على يدك تدل على صراع،

ومحاولة دفاع عن النفس للمجني عليها، أما تلك الندوب القديمة فهي تعود بشكل واضح لأسنان تم غرسها في ساعدك، فهي تزينه على شكل ساعة ويبدو أن الأمر قد تم من فترة لا بأس بها، وهذا دليل إضافي يدل على أنك قمت بمحاولة اعتداء قديمة نسبيًّا، يكفي أن نقارن بين أسنان المجني عليها والعلامة التي في ساعدك لنتأكد من أنها تعود لها، وهذا جمعته فقط من مجرد النظر إليك، وإذا أضفنا إليه ما سيسفر عن المعمل الجنائي بعد تحليل العينات التي تركتها عليها من سوائل ولعاب، وكذا الجلد الذي تحت أظافرها عندما خدشتك، كل هذا يعود بنا إلى طريق واحد، لذا اعترف بما ارتكبته ودعنا نوفر العديد من الساعات في الاستجواب، والعديد من ردود الأفعال، فربما غضبي يقود إلى ترك هدايا على وجهك فما رأيك؟!

وبصوت مكتوم أجاب عاكف وهو ينظر إلى الأسفل:

- أنا لا أذكر لقد كنت في حالة سكر، صدقني لا أذكر أي شيء ممَّا حدث.

وباستهزاء:

- غريب صرت الآن لا تذكر! وماذا عن محاولة الاعتداء السابقة ألا تذكرها أيضًا؟! ربما نتيجة التحاليل تعيد لك ذاكرتك، لكن قبل مغادرتك للحجز أخبرني هل تعلم مكان زوجتك؟
- لقد غادرت إلى المدينة المجاورة قرب الحدود بعد تلقيها اتصال من ابنتي.
- قيل لي أنكما تشاجرتما وقمت بإيذائها.
- أنا لم أتشاجر مع سهير كما لم أقم أبدًا بإيذائها؟
- عدنا مرة أخرى للإنكار، لدينا شهود أيضًا على ذلك، الحقيقة أنا لن أحرق دمي معك، لكن أعدك أن أقوم بكل ما يلزم لتقدم السيدة سهير بلاغًا ضدك بالتعدي، لن أبرح مكتبي حتى أقدم ملفًا دسمًا إلى النيابة العامة، ثم نادى الشرطي الذي يقف بالباب: «يا شرطي قُدْه إلى الحجز، وعندما تأتي السيدة سهير أدخلها لمكتبي فورًا».

لكن سهير لم تأتِ ولم يظهر لها أي أثر، انتظر فاروق، لكن في اليوم الخامس بعد أن حصل على نتائج التحاليل من المعمل الجنائي وسهير لم تظهر أيضًا، قرر أن يستدعي عاكفًا ويجبره على توقيع طلب البحث لفائدة العائلة، فهي زوجته ومختفية منذ مدة ولا يعلم مكانها لذا على السلطات مباشرة البحث بشكل رسمي.

لكن قبل أن يستدعي الشرطي ليطلب منه استدعاء عاكف، طُـــرق باب المكتب:

- سيدي، السيد حلمي يطلب رؤيتك لقد قال إنك طلبت منـــه الحضور في حال استجد شيء.
- أجل أنا أذكر الرجل، اطلب منه الدخول.

لكن حلمي لم يكن وحيدًا هذه المرة كان برفقته سيدة عجوز:

- صباح الخير يا سيدي.
- لقد ناديتني سابقًا بابني فما الذي جعلك تغير رأيك؟!

ابتسم السيد حلمي بحبور، وقال:

- هذا من كرم أخلاقك بني، لكن المصائب عندما تجتمع تـــذهب بالعقل!
- هل يعني هذا أنك تحمل لي خبرًا سيئًا؟
- ربما، الحقيقة لا أدري ربما السيدة شامة تبالغ!

فقاطعته العجوز بغضب، وقالت بإلحاف:

- أنا لا أبالغ، والرائحة التي أشمها منذ يومين لا تبشر بـــالخير، ثم التفتت للضابط وقالت باندفاع: «صحيح إني عجوز لكن مـــا زلت أتمتع بحاسة شم قوية، وأنا أُؤَكد ما قلته سابقًا، أنا أشـــم رائحة كريهة منبعثة من بيت سهير، لقد شممتها من قبل، لكن لم

تكن بهذه القوة، إنها نفاثة وأستغرب أن حلمي لا يشمها كما أفعل؟!

- الحقيقة أنا أشمها أيضًا، وأظن أن قطًا دخل المترل خلسة وأُغلق عليه الباب، فمات من الجوع أو العطش بما أن المترل مغلق منذ مدة.
- رائحة بتلك القوة بكل تأكيد لا تعود لقط!

تابع الضابط جدالهما بصمت بينما دماغه يحلل الأمر بسرعة فقطَّب حاجبيه بقلق من النتيجة التي توصل لها، وبينما حلمي وشامة يتابعان جدالهما، أمسك هو بالسماعة وطلب النيابة العامة لاستصدار أمر تفتيش.

الانتقام

عاكف:

جلست مريم في زاوية الغرفة ذات الطلاء الأزرق الهادئ المريح، ثم رفعت بصرها في اتجاه الكاميرا، أخذت تنظر اتجاهها لعدة دقائق ثم إلى الزاوية قبل أن تزفر غاضبة:

- هذه الزاوية أيضًا ضمن مجال رؤيتها، تبًّا! لَمَ يضعون الكاميرات في الغرف، إنه انتهاك سافر للخصوصية، ثم جالت بعينيها مرةً أخرى وابتعدت للزاوية الأخرى، ثم رفعت عينيها مرة أخرى للكاميرا فاتسعت ابتسامتها، والتفتت لرشا قائلة:
- أظنها النقطة العمياء الوحيدة في الغرفة كلها، هنا يمكننا الحديث دون أن ترصدنا عيونهم.

حدثيني لقد مرت خمسة أيام على وصولنا لهذا المكان متى سنغادر؟ هل تعتقدين أن إقامتنا ستطول أكثر؟

- لا أدري يا مريم ربما نمكث حتى تتم إدانة عاكف.
- ألم تظهر بعد تلك التحاليل؟ لَمَ يحتاجون كل هذا الوقت فقد مرت حتى الآن سبعة أيام على الواقعة.. قضيت يومين في المستشفى لتلقي العلاج بعد كل تلك الكدمات والجروح التي

تركها ذلك الوحش، وخمسة أيام في هذا المكان الذي يدعونه مركزًا للدعم النفسي.. أرجو ألا يطول الأمر فأنا أريد المغادرة بأسرع ما يمكن.

- لقد صار التلعثم عندك عادة! أرجو ألا يلاحظوا ذلك فإن فعلوا ربما سيستمرون في حبسنا هنا بدعوى رغبتهم في علاجك.
- لا سمح الله! اهدئي، أتسمعين صوت أقدام تقترب.. أظن أحدهم قادم.

فأسرعت تجلس على السرير فيما أُدير مفتاح الباب الموصد، ودخلت الممرضة يسير في إثرها رجلين:

- مريم! تعالي لقد جاء الشرطيان لمرافقتك إلى قسم الشرطة، فالضابط فاروق قام باستدعائك.

رفَّت رموشها بتسارع وتسارعت ضربات قلبها وهي تفكر لِمَ استدعاها الضابط؟ هل استطاع كشف خطتها؟ بكل تأكيد لم يفعل! فقد لفَّت بدهاء خيوط الجريمة، فكرت لثوانٍ إن كانت قد ارتكبت غلطة أو نسيت دليلًا، تنبهت أن الممرضة تنتظر، فحاولت التماسك وقفزت من سريرها في اتجاه الباب بعد أن قررت متابعة خطتها فليس لديها حل غير ذلك، ابتسمت بتردد وقالت بسعادة مزيفة:

- هل عادت خالتي؟ أيعقل أنها ستقبل بي حتى بعد فعلة زوجها.

التفت الشرطيان لبعضهما وحملت نظراتهما تعاطفًا حقيقيًّا وأومآ لها بأن تتبعهما، تنفست مريم الصُّعداء عندما رأتهما يفسحان لها المجال للمرور فطردت كل الخوف فلو علموا بفعلتها لكانا عاملاها معاملة خشنة، ولكانت الأصفاد في يديها.

* * *

حاول فاروق مرة أخرى مقاومة رغبة التقيؤ التي تنتابه منذ ساعات، أمسك برأسه وحاول استنشاق أكبر قدر من الهواء لطرد الرائحة الكريهة التي علقت بأنفه منذ أن اقتحم منزل سهير، عندما تذكَّر منظر جثتها المنتفخ أحس برجَّة في بطنه، وازداد الأمر سوءًا عندما تذكر إعلان أحد أفراد الشرطة العلمية أن مصدر الرائحة النفاذة ليس سهير، بل محتوى البرميل المركون في الزاوية، لم يستطع فاروق المقاومة أكثر فأفرغ معدته عندما تذكر كسرهم للبرميل في محاولة للحفاظ على الجسد المحشو دون إفساده أو إفساد ما عليه من أدلة، مضمض فمه وغسل وجهه ليستعيد تركيزه، ثم غادر الحمام في اتجاه مكتبه عندما اقترب منه رأى الشرطي رفقة عاكف ينتظران قدومه، فنظر فاروق إلى هذا الأخير باشمئزاز وطلب من الشرطي وضعه في غرفة منفردة، فقد خطط لإخضاعه لضغط نفسي كبير.

عندما استقر في مكتبه أبعد كوب الشاي الموضوع أمامه فآخر ما سيفكر فيه هو الطعام والشراب، وربما لن يفكر فيهما قبل مرور فترة طويلة، اعتدل في جلسته وجهز نفسه لبداية استجواب مريم التي علم بوصولها للتوِّ.

تفحصها عندما دخلت الغرفة، فرآها كما في المرة السابقة رقيقة وشاحبة فشعر اتجاهها بعطف أبوي لم يتمكن من كبحه:

- مرحبًا يا مريم كيف حالك؟ هل صرت بخير؟
- لا أدري إن كنت بخير يا سيدي، لكني سأتحسن مع مرور الوقت.
- أجل هذا مؤكد، فالزمن دومًا كفيل بمداواة الجراح، لكن سامحيني، اليوم أنا مضطر لأضغط على جرحك من جديد، وأطلب منك سرد كل ما جرى ذلك اليوم وأرجوك بالتفصيل الممل؛ فكل كلمة تقولينها ستساعدنا في التحقيق.
- ألم تظهر نتائج العينات التي أخذتموها مني؟ فهي ستُظهِر بشكل قاطع أنه اعتدى عليَّ وأني أقول الحقيقة!
- أجل معك حق، لكني أحتاج تفاصيل ما حدث من أجل أمر آخر ستعلمينه لاحقًا.

وَجَمَ وجهها ثم تنهدت تنهيدة طويلة، وقالت بإحباط:

- في صباح ذلك اليوم نهضت كالعادة في الثامنة صباحًا، وجلست بغرفتي أنتظر فأنا أكره أن أخرج منها إن لم يغادر عاكف المنزل، انتظرت حتى الساعة الحادية عشرة صباحًا، وعندما سمعته ينزل الدَّرج فرحت فبعد ربع ساعة على الأكثر كما هو معتاد يمكنني النزول لتناول إفطاري، لكن عاكف لم يغادر، فتسللت لمعرفة إن كنت قد أخطأت، وإني لم أرصد خروجه من نافذة غرفتي، عندما نزلت نصف الدَّرج سمعت صوت خالتي تبكي وتنحط بشكل يوجع القلب، هو يحاول أن يمسك بفمها لكي لا يصل صراخها للجيران، أنا لم أرَ ذلك لكنني سمعتها تبعده بالقوة وتتوعده باكية من أن إغلاقه لفمها لن يمنعها من تبليغ الشرطة، ثم سمعت على ما يبدو صوت كرسي أو طاولة ينكسر فعلمت أنه ربما ضربها به، الحقيقة أنا لست متأكدة، فهربت في اتجاه غرفتي وأغلقت بابها ووضعت كرسي أيضًا، انتظرت لفترة طويلة، لكن خالتي لم تأتِ لتفقدي، وبقيت حتى غلبني النوم واستيقظت على صوت معدتي الفارغة، ولم أستطع تجاهل نداءها المتكرر فقررت النزول بسرعة إلى المطبخ لآكل أي شيء، وأظن أنك تعرف ما جرى بعدها يا سيدي.

- وبعد أن سمعت انكسار الكرسي أو الطاولة، هل سمعتِ صوت خالتك وهي تتألم أو سمعتِ صراخها بعد ذلك؟
- لا لم أسمع أي شيء، والحقيقة لم أستطع البقاء كنت خائفة من أن يلمحني فقد كان عقله تائهًا في دوامة الغضب.
- ولم تريْ خالتك بعدها؟
- لا لم أرها، أظنها تركت المنزل بعد ما حدث، وإن أردت رأيي كان يجب أن تتبنَّى هذه الخطوة من مدة طويلة، بما أنهما كانا يتشاجران باستمرار.
- وبعد نزولك للمطبخ كما قلت سابقًا، ألم يسترعي انتباهك أي شيء مختلف أو لاحظت شيئًا غريبًا!
- لا، لم أرَ أي شيء مختلف كما إني استغربت عندما لم أجد شظايا ما تحطم، لكني لم أتوقف كثيرًا للتفكير فقد كنت منشغلة بتحضير الشطيرة والتهامها بسرعة قبل حضور عاكف، كان تفكيري منصب على فكرة واحدة هي الوصول إلى غرفتي وإغلاقها قبل حضوره، لكن عندما خرجت من باب المطبخ وجدته هناك أمامي، سكتت فجأة وأغمضت عينيها وبعثت ذكرى قوله: «إذن نحن فقط مَنْ بالمنزل» الألم في نفسها فحاولت طردها بقوة، فهذه اللحظات هي مفتاح نجاتها، رفعت نظرها للضابط ثم تابعت: «عندما رآني قال لي: «إذن الصغيرة

مريم هي مصدر هذه الضجة»، وأنا عندما رأيت ابتسامته السمجة خفت فحاولت الصعود إلى غرفتي، لكنه وقف أمامي مغلقًا طريق هروبي، فلم أجد غير غرفة نجلاء لأحتمي بها فأسرعت إليها، وأغلقت بابها بالمفتاح، لكن استطاع كسره واعتدى عليَّ.

- إذن هو كان بالمنزل عند نزولك للمطبخ؟
- لا، لا أظن، فأنا دخلت غرفة خالتي بحثًا عنها والمطبخ ولم يكن به، وطبعًا غرفة نجلاء كانت قرب المطبخ وكانت فارغة.
- وماذا عن القبو؟
- القبو! أنا لم أفكر بالدخول إليه، فنادرًا ما نقصده، كما أن رائحة العفونة به كبيرة لذا يتجاهله الجميع.
- ربما كان عاكف بالقبو وعندما سمع حركتك في المطبخ أسرع بالصعود حيث أنت.
- يا إلهي! أنا لم أفكر في الأمر، بالفعل عندما رأيته كان قرب القبو وسرعان ما تحوَّل إلى جانب السلم المؤدي للأعلى.
- حسنًا، قولي لي هل دخلت القبو من قبل؟
- نعم دخلت، أظن في مناسبتين، في المرة الأولى كنت أحتاج بطانية لأضعها على السرير، فقد فسدت بطانيتي بعد أن حاول

عاكف التحرش بي، أما في المرة الثانية فقد دخلنا له أنا وخالتي عندما كنا نبحث عن نجلاء؟

- ونجلاء ماذا يمكنك القول عن اختفائها؟
- ابنة خالتي غادرت المنزل رفقة صادق، أظنها كانت على علاقة به، فأنا رأيتها تتسلل إلى الخارج لمقابلته أكثر من مرة، وعندما بدؤوا بالبحث عنها أخبرت السيدة شامة عن هذه العلاقة، لكن هناك رواية أخرى لا أدري إن كانت صحيحة، فقد قالت خالتي إن نجلاء تشاجرت مع والدها وغادرت المنزل لتقيم عند صديقة لها إلى أن تهدأ أعصابها، لا أدري إن كانت هذه هي الحقيقة أم أن خالتي تحاول الحفاظ على ماء الوجه، ولا تريد الاعتراف بهروبها.

- فهمت! وهل كان عاكف يتشاجر مع نجلاء أيضًا؟ كيف يمكنك وصف علاقتهما؟
- لا أدري إن كانا يتشاجران فنحن لم ننتقل للمدينة إلا مؤخرًا، لكن طوال الفترة التي قضيتها في بيتهم لم أحضر سوى شجار واحد بينهما، عندما رأت نجلاء بعض صديقاتها يسخرن من مشية عاكف غير المتوازنة، فتشاجرا جراء ذلك، كما قام بصفعها بعدما صرحت في وجهه أنها تخجل لأنه والدها، أما عن علاقتهما فأظن أنها عادية، فعاكف يقضي النصف الأول من

اليوم في النوم ويخرج بعد تناولـــه للإفطـــار، ولا يعـــود إلا في السادسة مساءً إن احتاج للمال، وإن لم يحتَج له يبقى في الخارج إلى وقت متأخر جدًا، وكما ترى فهما لا يحتكَّـــان ببعضـــهما كثيرًا.

- شكرًا لك يا مريم، وقد أقوم باســـتدعائك مـــرة أخـــرى إن احتجت لذلك.
- طبعًا سيدي، لكن أيمكن أن أسألك، فأنا أشعر أن هناك شـــيئًا ما؟ أحس بقلق لا أعرف مصدره؟
- إحساسك صادق، ولا أرى فائدة من إخفاء الأمر عنك، أظـــن حان الوقت لإخبارك، فشخصت عينا مريم إليه وتنبهت كـــل حواسها تحاول رصد كل حركة، لكن الضابط فسَّر حركتهـــا تلك بالقلق والتوتر مما سيقوله، فحاول قدر الإمكـــان إظهـــار تعاطفه وهو يوصل لها الخبر:
- أنا آسف يا مريم لقد عُثر البارحة صباحًا على جثـــة خالتـــك وكذا جثة نجلاء بقبو المنزل!

قفزت مريم من مكانها بقوة، الشيء الذي أدى إلى سقوط الكرسي بعيدًا واتسعت حدقتا عينيها وهي تنظر لفاروق:

- أنت لا تعني ما سمعته.

- أنا أعلم أنك مصدومة، لكن هذه هي الحقيقة!

تجمعت الدموع في عينيها، وقالت بصوت منخفض مختنق بالمشاعر:

- أنا لا أصدقك! لا يمكن أن يتركني الجميع هكذا، لا يمكن، لقد كانت بكامل عافيتها كما أن نجلاء قد غادرت برفقة صديقها لا بد أن في الأمر خطأ ما!
- أنا آسف، لكن الجيران قد تعرفوا عليهما لذا نسبة الخطأ تكاد تكون معدومة.

خطت عيونها الدموع وواصلت ذرفها بألم، حاول الضابط تهدئتها ومدَّ لها المنديل فاعتذرت، وقالت بصوت أجش معبأ بالدموع:

- أنا لم تعُدْ لدي طاقة لمجابهة كل ما يحدث من حولي، أنا حقًّا أكاد أفقد إيماني. صمتت وأطرقت لفترة ثم رفعت رأسها في اتجاه الضابط مرة أخرى وفي عينيها سؤالًا: هل تسببت الضربة التي تلقتها خالتي من زوجها في وفاتها؟

ألقى عليها فاروق نظرة مطمئنة:

- تلك الضربة التي سمعتها ليست سبب الوفاة وحسب التقارير الأولية فقد تم قتلها عن طريق الاختناق، أما نجلاء فالتشريح هو ما سيظهر سبب الوفاة.

- ذلك الحقير لَمَ قتلها لقد خدمته بكل حب رغم أنه كان مصدر شقائها، لكن كيف استطاع قتل نجلاء فهي فلذة كبده، هل هو من قام حقًّا بقتلهم؟
- ما زلنا في طَوْر التحقيق وسرعان ما ستنكشف الحقيقة.

ارتعدت شفتا مريم ودخلت مرة أخرى في موجة بكاء، فأطرق الضابط برأسه احترامًا للحظة الحزن هذه، ثم استدعى الشرطي وطلب أن يعيدها إلى المستشفى.

علقت رشا على ما حدث:

- كانت لحظات عصيبة، لكنك أجدت دورك، كـــدت أصـــدق دموعك.
- صدقيها يا رشا فأنا حقًّا بكيتهما وبكيت نفسي أيضًا لقد كانتا حقيرتين، لكنهما كانتا أيضًا آخر أفراد عائلتي، أنا الآن صرت وحيدة وأيضًا صرت قاتلة، اليوم للأسف صرت وحشًا في صفة إنسان، استغليت جسدي وذكائي وبعت روحـــي للشـــيطان، كنت أظن أني سأزحزح عن نفسي شيئًا من أحمال الشقاء، لكني بتُّ أنوء من أحمال حزن إضافية.

نهاية عاكف

تنهد الضابط فاروق بقليل من العمق وفرك وجهه بتعب ثم حـــاول إيجاد وضعية مريحة على الكرسي للاسترخاء، لكن التفكير الملح في القضية أفسد عليه راحته، نهض من مكانه قاصدًا الغرفة التي يجلس بها عاكف، وقف أمام الزجاج الذي يفصل بين غرفتَـــي التحقيـــق وأخذ يتابع خطوات عاكف السريعة وهو يقطع طول الغرفة بتـــوتر واضح، ابتسم فاروق وخرج إلى حيث يقف الشرطي الذي يراقب الباب:

- امنع عنه السجائر وأي شيء آخر، حتى لو طلب الماء لا تناوله له، دعه يتداعى بالكامل وأنا سأعود بعد ساعتين.

اقترب عاكف من الزجاج الفاصل بين الغرفتين متذمرًا من التجاهل الذي يتعرض له، فقد مر على احتجازه هنـــا مـــا يقـــرب ثـــلاث ساعات، اقترب من الفاصل الزجاجي وبدا بالصراخ والوعيد، بعد أن تعب دون رد يُذكر، بدأ يستجدي من يقف هناك من أنه يحتاج للحمام بشكل طارئ، لكن لم يكن بالجانب الآخـــر أحـــد ليهـــتم بصراخه وبعد أن يئس عاد إلى الكرسي وجلس بصمت.

بعد مرور ساعتين كاملتين، دخل فاروق الغرفة فوقف عاكف بغضب:

- لا يمكنك أن تتركني كل هذا الوقت هنا، هذا بمثابة حجز انفرادي، اطلب لي محاميً الخاص، فلن أسمح أن تنتهك حقوقي مرة أخرى.
- بما أنك تعرف الحقوق جيدًا قل لي لما انتزعت حق زوجتك وابنتك بالحياة؟

تراجع عاكف للوراء بشكل تلقائي، وقال بتوتر:

- ماذا تقصد بقولك؟
- يبدو أنه ما زال لديك قوة للعبة المراوغة، حسنًا أقول لك بشكل مباشر لمَ قتلت زوجتك وابنتك؟
- هل ماتت سهير ونجلاء؟!
- بشكل أدق قُتلا، أنت قتلتهم.
- ماذا؟ أتقصد أنهما قُتلا عند الحدود؟
- يا إلهي ألهمني الصبر، أنت تحب المراوغة وتجيدها فمن ينظر لك يظن أنك متفاجئ من الخبر، اسمع.. أنا أنصحك بالكف عن هذه الألاعيب لأنك لن تخرج من هنا إلا بعد معرفتي لكل التفاصيل.

اضطرب عاكف وسرت في جسمه رعدة شديدة، وقال بصوت حباله متشنجة:

- بالله عليك أصدقني القول، هل حقًّا ماتت سهير ونجلاء؟
- سأساير لعبتك وأقول أجل، قُتِلا!

ابتعد عاكف عن الكرسي وجثا على ركبتيه وبدأ بالبكاء، وقال بصوت كأن حروفه تخرج من بئر دفين:

- كيف حدث هذا؟
- صدقني هذا ما أفعله، أريد أن أعرف كيف استطعت قتلهم بدم بارد؟

ثم تابع بعد أن نظر له عاكف بعدم فهم:

- وجدنا جثّتي سهير ونجلاء بالقبو وليس بالحدود كما تدعي، وجثة نجلاء كانت في مرحلة متقدمة من التحلل، ماذا يمكنك القول عن هذا؟

استسلم عاكف للذهول، وقال بعد مدة بصوت متقطع ودموعه ما زالت تسيل على وجنتيه بدون انقطاع:

- أنا لا أعرف، كل ما أعرفه أن سهير ذهبت لمساعدة نجلاء بعد أن اتصلت بها من مكان ما قرب الحدود، هذا ما قالته مريم.

- اسمع يا عاكف لا فائدة من الإنكار لقد فعلت من قبل، عندما أنكرت اعتداءك على مريم والأدلة والتحاليل أظهرت أنك المعتدي، الحمض النووي الذي كان عليها يعود لك بنسبة ٪ 99.99.
- أنا أعترف أني اعتديت على مريم، أنا نذل، لكن أقسم أني لم أقتل زوجتي وابنتي.
- ومن فعل، هيا قل لي؟ من دخل منزلك وقام بالجريمة في القبو وعلى فترتين زمنيتين متباعدتين؟ من دفن نجلاء في البرميل، ثم قتل سهير بعد ذلك بمدة؟
- أنا لا أعرف، أقسم أني لا أعرف؟
- عاكف الأفضل لك أن تعترف، سيأخذ القاضي ذلك بعين الاعتبار أثناء الحكم.
- لَمَ يستعصي عليك تصديقي؟! أنا لم أقتل طفلتي أنا طاهر القلب من هذه التهمة، ألا ترى ألمي؟! لقد أخبرتني للتوِّ بفقدان كامل عائلتي، أيُّ قسوة هذه!
- إنها نفس القسوة التي جعلت قلبك كالحجر، وجعلت يداك تمتد لغرز الإبرة في ظهر سهير.
- إبرة، هل قُتلت سهير بغرز الإبرة في ظهرها؟

- أرى أنك لم تتفاجأ من استعمال الإبرة كسلاح جريمة، رغم أن كل من علم الأمر استغرب، حتى إن بعضهم لم يصدقه.

فقال عاكف بتردد:

- أنا متفاجئ بالطبع.

رد فاروق باستهزاء:

- وأنا أرى ذلك بوضوح، اسمع أنا لن أُهدر المزيد من الوقت فأمرك محسوم لا محالة، رأى فاروق نظرة التساؤل في عينَي عاكف فاستطرد: الإبرة التي لم تتفاجأ بها كسلاح جريمة، وجدنا عليها بصمات، فقط تفصلنا بضع سويعات ونعلم لمن تعود، كما وجدنا الإبرة في سترة تعود لك ربما انشغلت بهتك عِرض مريم ولم تتخلص منها، لا أعلم لَمَ تصرُّ على الإنكار؟!
- أظن أن أحدهم يحاول إلصاق التهمة بي، يخيَّل إليَّ أني أتعرض لمؤامرة مدروسة.
- أجل يا عاكف، نفسك الخبيثة هي من أوقعتك في هذه الورطة، وعلى الرغم من أن كل الدلائل تشير لك، لكنك مستمر في الكذب وتتحرّاه بشكل بشع، دعني أسألك لَمَ بعد الاعتداء على مريم نمت قرير العين دون خوف من اكتشاف سهير لخيانتك، حاول عاكف التحدث، لكن بحركة من يده أوقفه

فاروق وتابع قوله: «لا داعي لإجابتك أنا سأتولى الأمر عنك، أنت لم تهتم لأن سهير لم يعد لها وجود، أنت أنهيت حياتها للأبد بكل برود، أظن أنها اكتشفت ما فعلته بنجلاء وعندما واجهتك أنهيت حياتها.

لبس وجه عاكف تعابير متنافرة وسرعان ما احمرَّت عيناه من الغضب، ففقد السيطرة على نفسه وأمسك بالكرسي الذي يجلس عليه ورماه في اتجاه الضابط فاروق الذي تلقى الضربة بذهول، وقبل أن يستوعب ما حدث، تحرك عاكف ناحية الباب يحاول الهرب، لكنه اصطدم بشرطيَّين يحاولان دخول الغرفة بعدما رأيا الاعتداء من الغرفة المتاخمة من وراء الزجاج، فطوَّقا عاكفًا فيما تقدم فاروق ناحيته قائلًا بغضب:

- شكرًا على الفرصة، لقد كنت أتحرَّق شوقًا لأفرغ جام غضبي عليك لما فعلته بهؤلاء النسوة، فانقضَّ على رجليه بالضرب، وحاول الشرطيَّين منعه من مواصلة فعله، لكنه استمر بينما عاكف يصرخ من الألم، توقف بعد أن سمع صوت الهاتف وقال له بعد أن صمت الرنين فجأة:
- أعدك أن أبذل قصارى جهدي ليلتف حبل المشنقة حول رقبتك، لكن قبل أن أبلغ هذه المرحلة، سأعمل على أن تحظى

بإقامة مذهلة في الزنزانة، وأنا شخصيًا من سيختار شركاءك فيها.

أمسك عاكف رأسه بين يديه وبدأ بالبكاء ثم انتفض للفكرة التي خطرت بباله:

- إنها مريم، مريم من قتلتْهما، عندما أفكر أجد أنها هي من فعلت ذلك.

نظر إليه فاروق بنظرة شزرًا، وقال بغضب:

- كف عن ترَّهاتك التي ترمي بها يمينًا وشمالًا، فمريم فتاة مراهقة ساذجة لا تعرف ألاعيبك الوسخة، إن كنت تريد أن تقدم كبش فداء لجريمتك، فاختر شخصًا قادر جسمانيًا على فعلها، أما مريم فلن تستطيع بتلك البنية حمل نجلاء ودفنها، وكذا قتل سهير بتلك الطريقة الذكية التي لا تتأتى إلا لمن خَبَرَ الإجرام.

قبل أن يرد عاكف معترضًا..

ارتفع صوت هاتف الضابط فاروق من جديد فأشار لعاكف بالصمت، وعندما رأى الرقم الخاص بالمعمل الجنائي أسرع يستقبل المكالمة، وأطرق رأسه يستمع للمتصل بتركيز قوي، وعندما انتهى أغلق الهاتف ونظر لعاكف نظرة شماتة ثم قال:

- أنت أوسخ مَن التقيت بهم في عالم الإجرام، القدر أيضًا أعيته عربدتك وأبى إلا أن يظهر الحقيقة بأسرع ما يمكن، نظر في عينَي عاكف الذي ابيضَّ وجهه وقال: لقد تم القبض عليك منذ فترة إثر عراك في الخمارة وتم أخذ بصماتك وإدراجها في النظام الآلي للتعرف على البصمات، ولسوء حظك فقد تطابقت البصمات التي وجدناها على الإبرة مع البصمات خاصتك في النظام، والآن لم يعد لك مخرج يا عاكف، ولترتاح أكثر، أقول لك أن المختص في المعمل الجنائي يظن أيضًا أن الشعرة التي وجدوها في الشريط اللاصق الذي كُمِّمَ به فم سهير تعود لك، صحيح إن نتيجة اختبار الحمض النووي لم تظهر بعد، لكنه قال أن تلك الشعرة قصيرة تعود لشعر شخص متقدم في السن؛ لأن نقص الميلانين أدَّى إلى ظهور الشيب بجزء كبير منها، لذا فهو يظن بنسبة كبيرة أنها تعود لك حتى قبل صدور النتيجة.
- أقسم أني لم أقتلهما لمَ لا يصدقني أحد، أنا بريء من دمهما!

حرك فاروق رأسه غير مصدق استمرار عاكف في الإنكار ونظر إليه بأسف ثم غادر الغرفة.

(انتهت)

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء..... 6
مقدمة..... 7
مـريـم: مستشفى الأمراض النفسية والعصبية 8
تلك الليلة 22
مقتل سعاد..... 29
ألم الفراق..... 38
ظهور رشا..... 46
دافع الجريمة..... 60
اختفاء نجلاء 72

البحث عن المختفية..... 86
تفاصيل الجريمة..... 100
الاعتداء 122
التحقيق..... 128
الانــتقــام..... 142
نهاية عاكف..... 153

فداوي صوفية
مغربية الجنسية حاصلة على الإجازة في الأدب العربي، ودبلوم في التربية والتكوين.

عطر زهر الرمان

(القصاص المشروع)

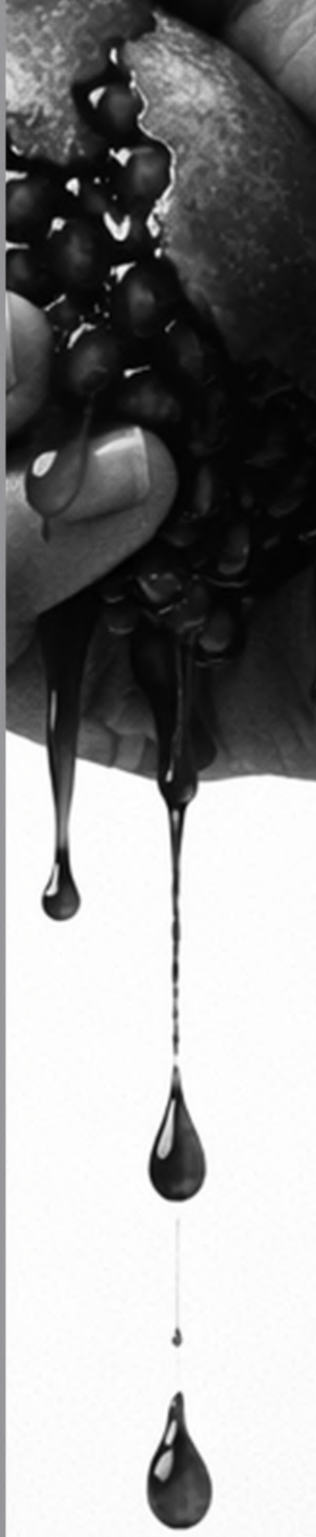

عندما تتوه العدالة في دروب الظلم، وتطفو ذئبية من ظنّاهم يوما جزءًا من حياتنا، فهل يصبح استيفاء الحق باليد مشروعا؟ وهل نقبل بالعدالة البرية؟ قد لا تكون آلية العين بالعين مستساغة، لكن هل يمكن أن نلتمس العذر لطفلة وجدت نفسها في مواجهة الظلم فتحولت الى جلاد؟

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com